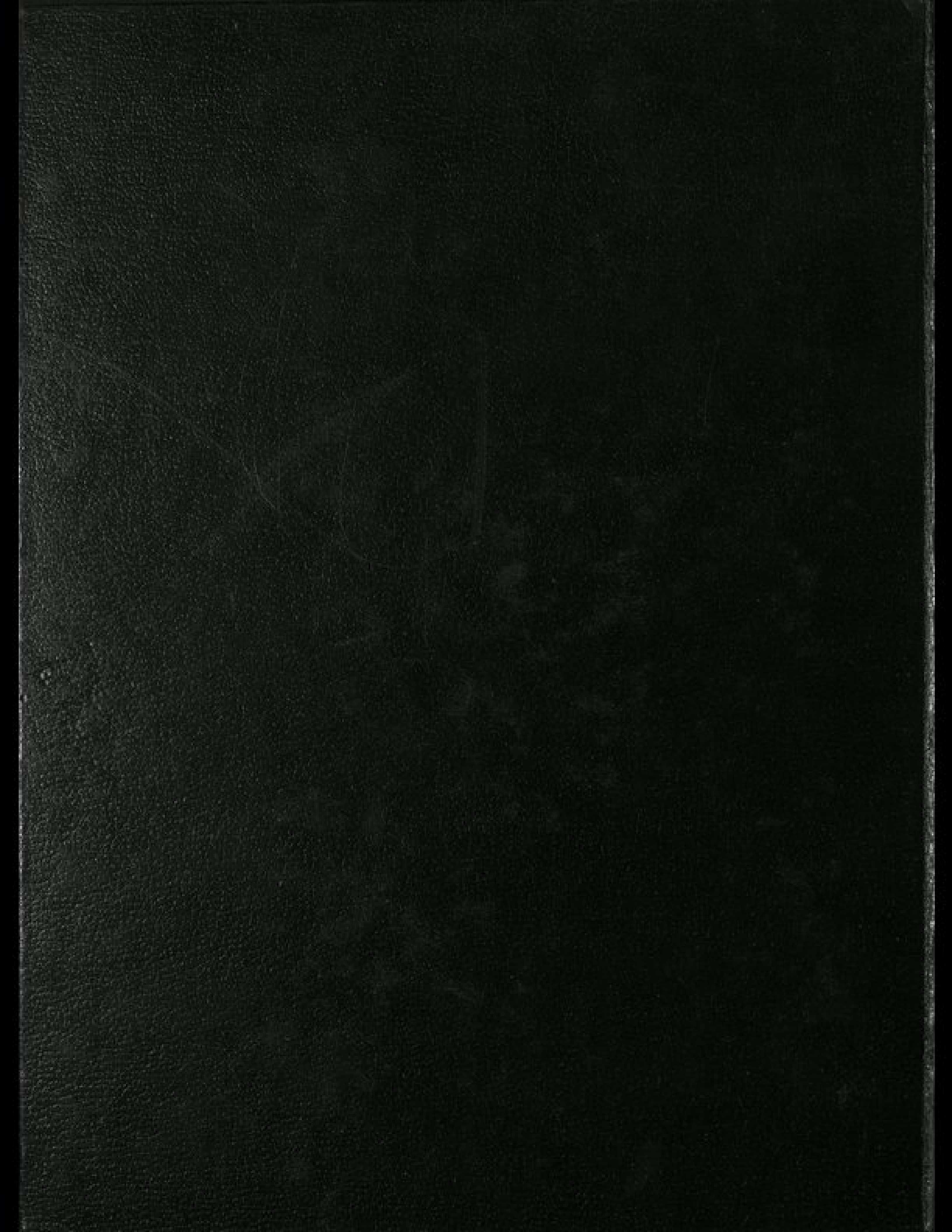
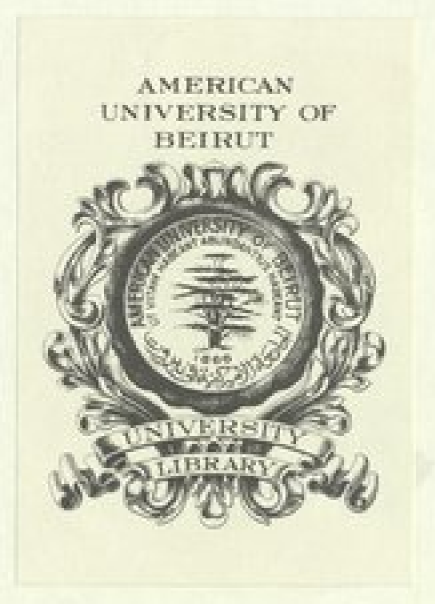
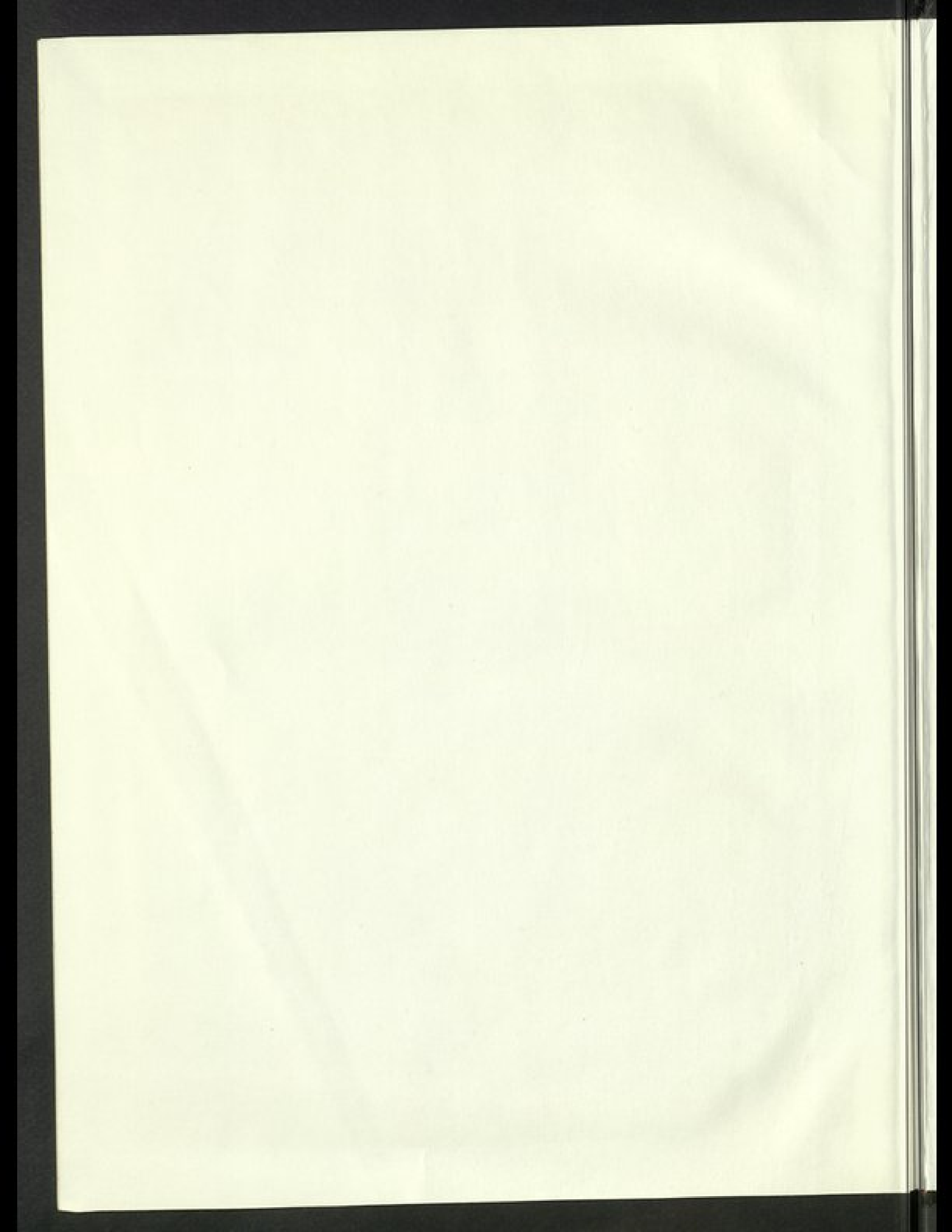
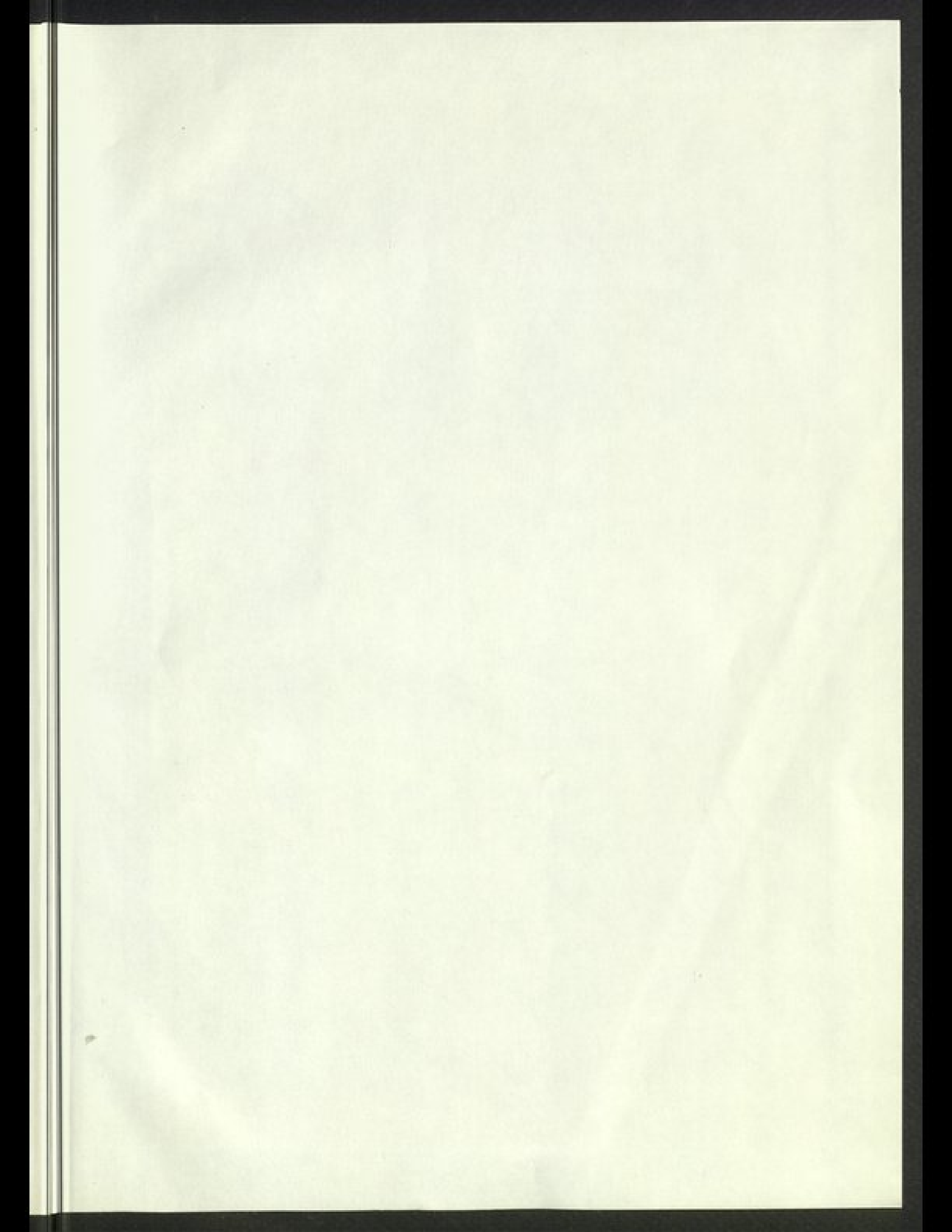
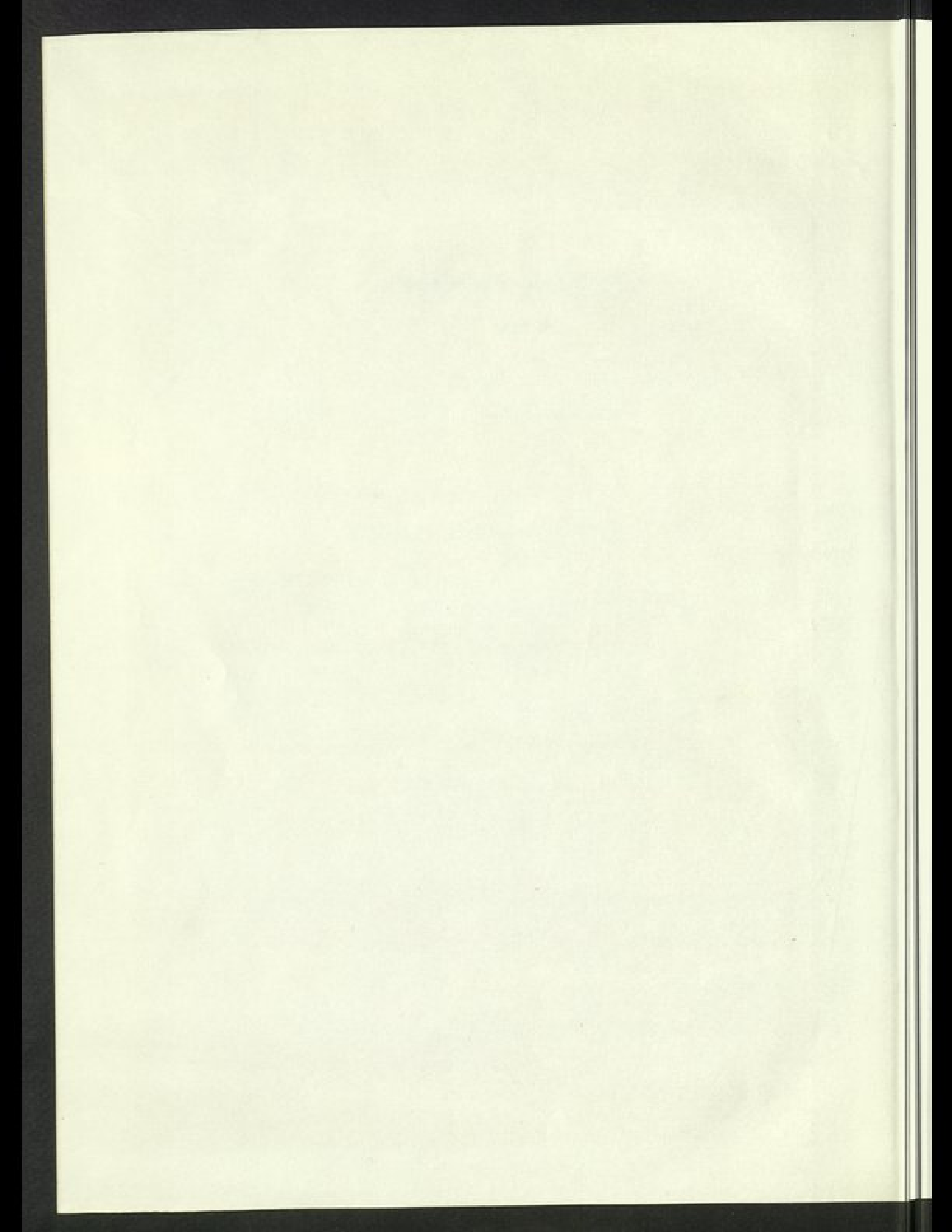
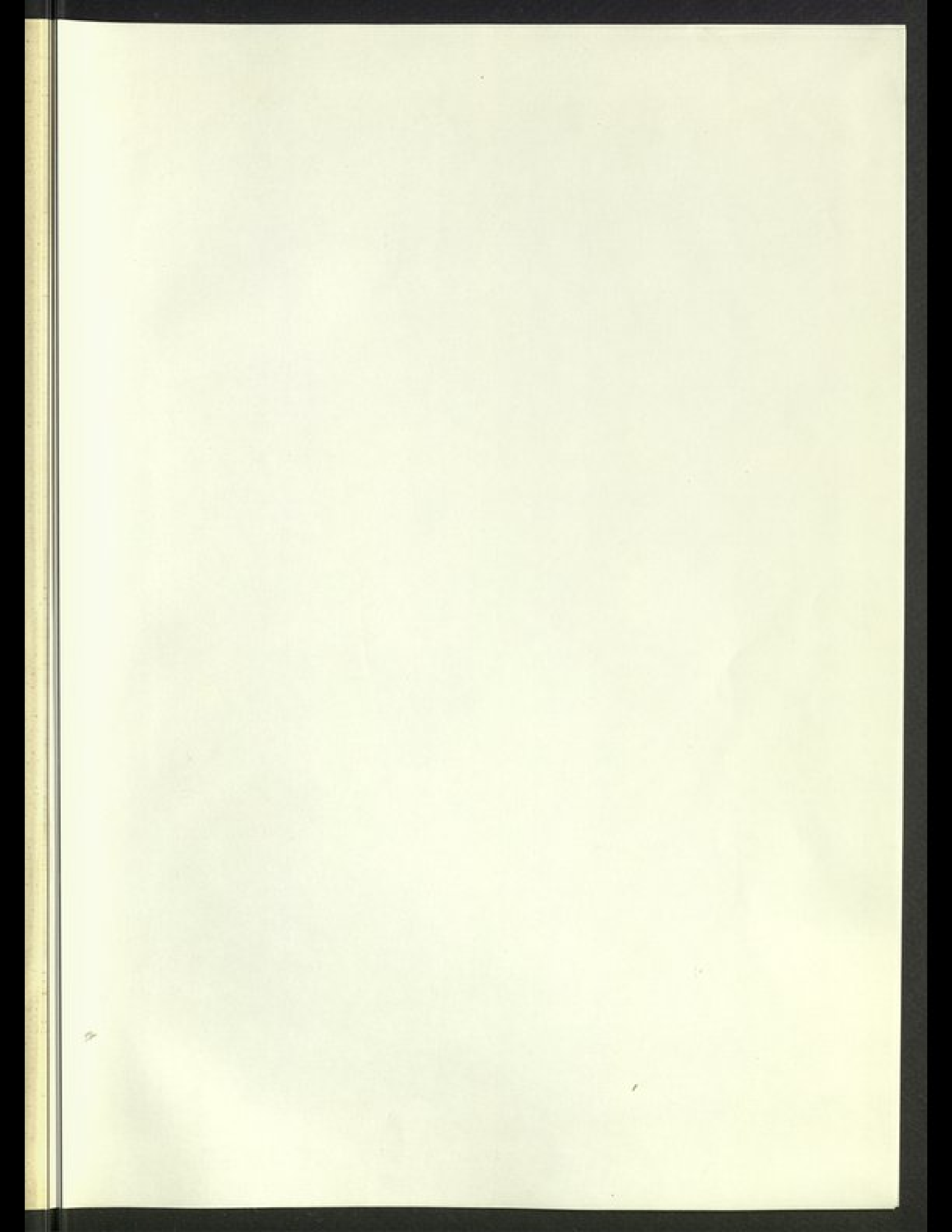



AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT
UNIVERSITY
LIBRARY



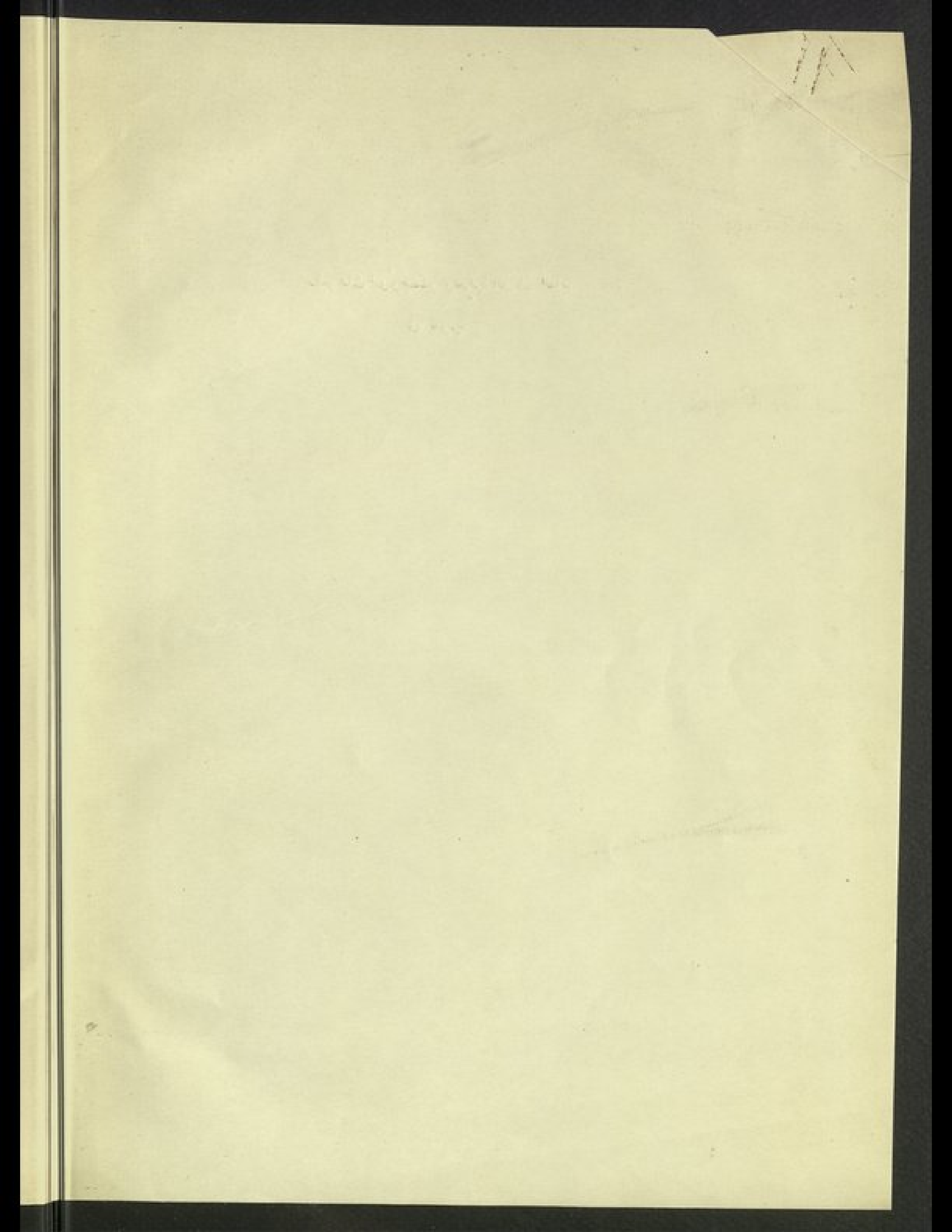






مطبوعات الأونيسكو ومديرية الآثار العامة

في سورية



سورية

قضايا حفظ الآثار والمواقع الأثرية والاستفادة منها

تقرير لجنة الأونيسكو المرسلة الى سورية في سنة ١٩٥٣

والمؤلفة من

السادة بول كولار رئيساً
وسليم عبد الحق وأرماندو ديللون عضوين

الأونيسكو ومديرية الآثار العامة في سورية

ترجم هذا التقرير الى اللغة العربية

ونشر في شهر كانون الثاني من سنة ١٩٥٥

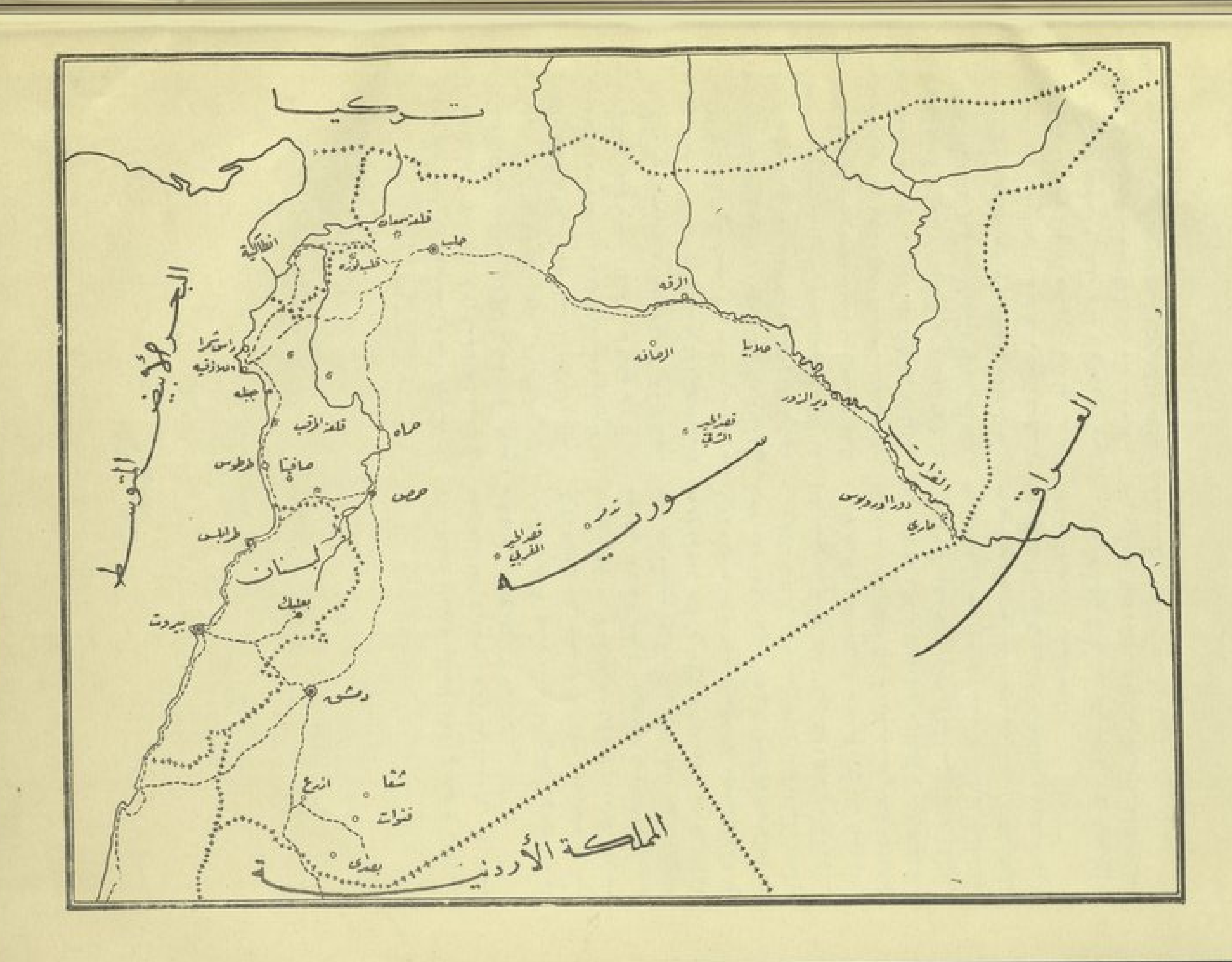
بتآزر الاونيسكو ومديرية الآثار العامة

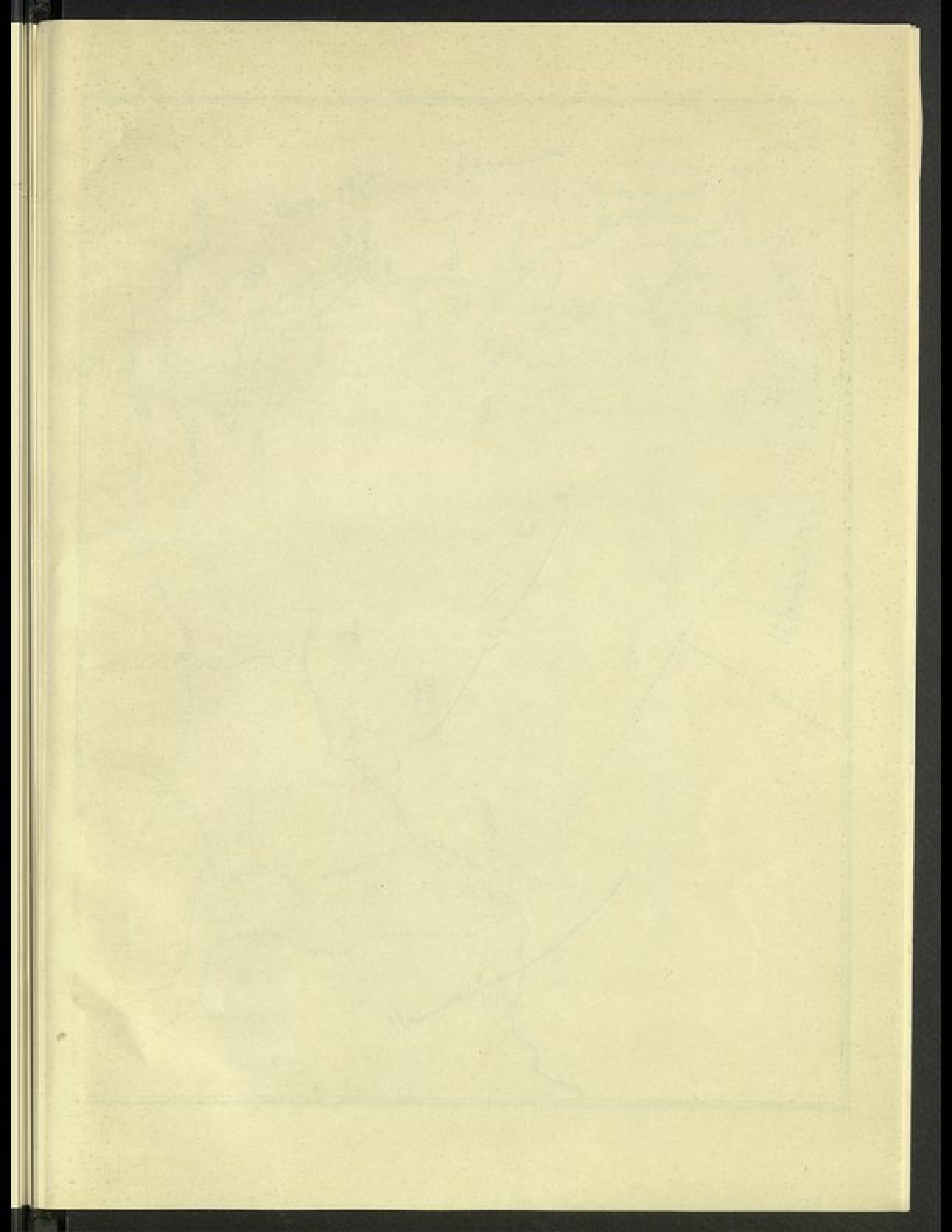
دمشق — سورية

طبع في

مطبعة الترقي بدمشق

الفهرس


تركيا
البحر الأبيض المتوسط
سورية
العراق
المملكة الأردنية
لبنان
حلب
حماه
حمص
طرابلس
بيروت
دمشق
بعلبك
اللاذقية
جبلة
طرطوس
صافيتا
الرقة
الرصافة
حلبيا
دير الزور
الفرات
ماري
تدمر
شقا
قنوات
بصرى
انطاكية



المقدمة

لما وجه وزير المعارف في الجمهورية السورية نظر الاونيسكو إلى القضية المهمة التي تضعها الآثار السورية على بساط البحث، رغب إلى هذه المؤسسة أن تؤلف لجنة تحقيق يعهد إليها بدراسة ١ً : الوضع العام للأوابد والمواقع التاريخية والأثرية في سورية، وأهمية كل منها. ٢ً : التدابير العامة الواجب اتخاذها لحفظ هذه الأوابد والمواقع، وللاستفادة منها. ٣ً : التدابير الخاصة اللازمة لحفظ وترميم الابنية والمواقع التي تقضي أهميتها أو حاجتها الملحة بسرعة العناية بها.

وفي الواقع إن سورية من أغنى بلاد العالم بالأبنية الأثرية. إلا أن هذه الثروة تؤلف بالنسبة لها حملاً ثقيلاً. إذ أن العناية بالأبنية وإمكان الاستفادة منها يحتاجان كل سنة إلى مبالغ ضخمة، لا تتردد الحكومة السورية الشاعرة بمسؤولياتها الثقافية عن تقديمها، مبينة بذلك الأهمية الواعية التي تعلقها على ماضي بلادها. ولا تتجلى هذه الأهمية فحسب فيما يبذل من جهود مالية ضخمة، بل في ترحيب سورية الحر بالبعثات العلمية الأجنبية الراغبة في اكتشاف أرضها. فينشأ عن ذلك وتتابع تعاون دولي خصب في حقول الحفريات الأثرية. وترى مديرية الآثار العامة السورية أن هذا التعاون يمكن أن تشمل فائدته ناحية ترميم الأبنية التاريخية. ولا يخفى أن هذه الأبنية تعود إلى الانسانية جمعاء، لما لها من قيمة فنية، ومعنى تاريخي. والمديرية المذكورة تأمل أن تفتح نتائج التحقيق الذي نظمته الاونيسكو المجال في هذا المضمار لتعاون واضح يقدم تقريرنا هذا موضوعه، ويؤلف المرحلة الأولى فيه.

وقد سعينا وفقاً للمنهاج الذي اختط لنا أن نوضح الوضع العام والخاص للأبنية التاريخية والمواقع الأثرية السورية، وأن نبين الصعوبات اللازم التغلب عليها للمحافظة على هذه الأبنية والمواقع، وأن نوصي ببعض التدابير التي يمكنها أن توسع العمل الذي تولته مديرية الآثار العامة بنجاح. كما أننا درسنا الشرائط الفنية لكل منطقة من المناطق الأثرية الكبرى في سورية، والقضايا الخاصة التي يضعها على بساط البحث تحسين هذه المناطق وترميم أوابدها، والحلول العملية التي يمكن التفكير بها لدى تطبيق المبادىء التي ذكرناها سابقاً.

وكانت بعثة الاونيسكو هذه مؤلفة من عالم أثري هو السيد بول كولار استاذ في جامعتي جنيف ولوزان (رئيساً) ومن مهندس هو السيد أرماندو ديللون مدير الأبنية التاريخية في (بارما)، ومن الدكتور سليم عبد الحق مدير الآثار العام في سورية، عضواً. وقد عملت في سورية خلال عشرة أسابيع بين نهاية شهر مايس وأول شهر آب من سنة ١٩٥٣، وجمعت هناك كل الوثائق اللازمة، وقد منح السيدان بول كولار وأرماندو ديللون جميع التسهيلات التي ساعدتهما على زيارة كل أرجاء سورية، وعلى تكوين رأي عن كل القضايا المتوجب دراستها.

ويلذ لنا أن نشكر هنا جميع من أعاننا في تأدية واجبنا، وخاصة في دمشق موظفي مديرية الآثار العامة الذين طلبنا مساعدتهم مراراً، لا سيما زكي الأمير الذي رافقنا خلال زيارتنا المدينة، وفي حلب السيد فيصل الصيرفي مدير آثار المنطقة الشمالية، والسيد صبحي الصواف المساعد الفني، وفي بصرى السيد سليمان المقداد مراقب الآثار، وفي السويداء، وتدمر والرقة، وقلعة سمعان، وحماة، وقلعة الحصن المفتشين والحراس الذين استقبلونا بترحاب ووجهونا بلطف. كما أننا نشكر أيضاً السيد هنري سيريغ الذي سمح لنا أن نستخدم بعض الصور الجوية من مجموعة المعهد الأثري الافرنسي في بيروت لتزيين هذا التقرير، والسيد جورج تشالنكو لما قدمه لنا من معلومات عملية.

وأخيراً فاننا نقدم إلى الدكتور سليم عبد الحق، على الرغم من أنه عضو من أعضاء البعثة، امتناننا لما أبداه من لطف في استقبالنا، ولكل ما قام به لتسهيل عملنا خلال إقامتنا في سورية.

افكار عامة

سورية وأبنيتها التاريخية

سورية بحسب موقعها الجغرافي بلاد مرور واحتكاك، وتجتازها وتتقاطع فيها الطريق الطبيعية التي تصل الشرق بالبحر المتوسط عبر وادي الفرات والعاصي، والطريق التي قادت الشعوب الشمالية الجذوبة إلى الجنوب ونحو إفريقيا. وقد احتلتها وتوطنت فيها أمم عظيمة منها سكان بلاد الرافدين، والمصريون، والحثيون، والآشوريون، والفرس، واليونانيون، والرومان، والعرب، والصليبيون، والعثمانيون. وكان ذلك خلال فترات قصيرة أو طويلة. وفيها حدث عدد من المعارك الفاصلة في التاريخ كمعركتي قادش، واليرموك. واليوم تجد سورية، وهي سيدة نفسها، في تاريخها المجيد ينابيع مختلفة وخصبة لثقافتها، كما تجد في حاضرها العزيمة اللازمة لنهضتها الرائعة.

وتعد ثرواتها الأثرية تعبيراً واضحاً عن تاريخها الطويل. ويتحتم علينا أن نرى في أوابدها تراثاً وطنياً خالداً. لأن لهذه الأوابد قيمة تعليمية للجيل الحاضر. إذ أنها تساهم في أن توضح له ما جعل في الزمن الماضي عظمة بلاده، وتدفعه بذلك لأن يبقى أبي النفس في الزمن الحاضر. فهي من وجهة النظر هـــذه جديرة أن تحفظ وأن تصان. وكذلك فان للأوابد في غالب الأحيان أهمية أخرى لكونها آثاراً فنية رائعة. فهي شواهد ناطقة على الأوقات العظيمة التي مرت بها مدنية من المدنيات، ولها قيمة بديعية وثقافية. ومن هذا فان إشعاعها يجتاز الحدود السورية. والحفاظ عليها لا يهم سورية التي تملكها فحسب بل يهم كل الأمم المتمدنة.

وتضع المحافظة على الأبنية التاريخية أمام سورية قضايا معقدة بسبب وفرة عددها، وكثرة تنوعها، والشروط الخاصة التي توجد فيها. وفي الواقع إنها بوضعها الحاضر تحتاج إلى عناية متعددة الأشكال. إذ أن قسماً منها فقط بقي قائماً ومستخدماً كما كان سابقاً، مما يسهل العناية به. وتوجد أبنية أثرية أخرى، تستخدم حالياً في غاية لم يفكر فيها من بناتها وهذا ما جعلها تتطور، وتتحول لتصبح ملائمة لهـــذه الغاية الجديدة. ومنها أيضاً ما هجر وأصبح أطلالاً، ومنها ما اختفى تحت التراب. وهكذا فان النوع الأول من هذه الأبنية التاريخية ظل محتفظاً بفائدته مقنعاً الناس بسبب وجوده على شكل واضح. أما بقية الأنواع التي سردناها فانها معرضة لأخطار تهدد وحدتها ووجودها. ومن الضروري أن يذكر ذلك إذا أريد أن يؤمن لهذه الأبنية الحماية بصورة فعالة.

ولا يخفى ان تشييد أي بناء أثري كان لسد حاجة معينة، أي أن وجود كل آبدة منوط بموقف خاص، سواء أكان هذا الموقف سياسياً، أو اجتماعياً، أو دينياً، أو عسكريا. فاذا زال أو تغير لا أمكن أن تهجر الآبدة، أو أن تزال، وتصبح عديمة الفائدة لأناس ينزعون إلى شكل من الحياة يغاير الشكل الذي كانت عليه في عصرها، ويفقدها ما كان لها من مكانة. وهكذا فان مصير أية آبدة ممكن أن يهدد بسبب تضارب المنافع الاقتصادية. وذلك لأنها تمثل رأسمالاً تتغير قيمته بحسب الأزمنة التي تمر عليها. ولا ينظر إليها بعضهم إلا من وجهة النظر هذه. فاذا ظهر أن استثمارها غير كاف، وأن العناية بها تتطلب نفقات تزيد عن الفائدة المتوخاة منها، فانهم يغرون بتركها، أو إزالتها. وكذلك أيضاً تتعرض الأوابد لأن يضحى بها أمام توسع المدينة القائمة فيها. ولا شك أن للعمران مطاليبه المشروعة، ويؤدي التطور أحياناً إلى اعتبار وجود بناء فجأة مضايقاً لتنفيذ مخطط توسيعي، الغاية منه تسهيل السير، وتحسين بعض العقارات.

ومهما يكن فيتوجب في كل الحالات المذكورة، أن يعلم كل منا بوضوح أن احترام الأوابد التاريخية لا يخالف مقتضيات الحياة الحاضرة، وأن أي بناء قديم حوّل عن الغاية التي أنشيء من أجلها، أو هجر، لم يفقد السبب الذي يجعله قائماً، وأنه غير عبء عديم الفائدة، وأنه إذا أصلح بشكل لائق، وإذا حسن، لأمكنه أن يلعب دوره في جسم المدينة الحي وفي حياة البلاد.

هذا هو واجب مديرية الآثار العامة التي تنحو جهودها نحو التعريف بثروات البلاد الفنية والأثرية . ويجدر أن ننوه قليلاً بفاعليتها الخصبة في النواحي الثلاث : التحريات العلمية ، وترميم الأوابد ، وتنظيم المتاحف . وسنتهز الفرصة فيما يلي لنضرب على ذلك أمثلة متعددة .

دراسة الأبنية التاريخية :

إن التراث السوري في الأبنية التاريخية يزداد كل سنة بسبب الاكتشافات الجديدة التي تظهر في ميادين الحفريات .

وقد بدىء بدراسة عدد كبير من المناطق الأثرية منـــذ أسفار الاكتشاف القديمة التي قام بها غ . ريه و م . دو فوغه و ر . ديسو وغيرهم ، ومنذ مواسم الحصاد الأثرية الواسعة التي جرت في فاتحة هذا القرن . ومنذ التحريات الجوية التي قام بها الأب المحترم بوادبار . ثم أجريت حفريات في هذه المناطق ، ولن نحاول أن ننظم قائمة بأسمائها كلها لكثرتها ، بل نكتفي بسرد النتائج الحسنة التي أدت إليها سياسة الثقة التي درجت عليها الحكومة السورية في هذا المضمار ، تلقاء العلماء المنتمين إلى جنسيات متعددة .

وفي الواقع أتى عدد كبير من البعثات العلمية الأجنبية منذ ثلاثين عاماً ، إلى سورية واشتغلت هـــذه البعثات فيها . وقد أظهرت أعمالها مجموعات من الأوابد الضخمة ، كما اكتشفت مدناً قديمة برمتها ، والتقطت وثائق لا تقدر بأثمان . فاستقبلتها سورية بترحاب ، ولم تزد فحسب بذلك تراثها الأثري والفني ، وتوضح تاريخها ، وتغني متاحفها (وقد أبان معرض المكتشفات الأثرية لسنة ١٩٥٢ فقط مقدار ما يمكن أن تكون هذه الثروات وأهميتها) ، بل إنها أقامت في مستوى البحث العلمي ، وعلى أحسن شكل ، تعاوناً دولياً خصباً يمكن أحياناً ايجاد عناصره ، كما نبه إليه السيد سليم عبد الحق منذ مدة قليلة ، حتى في تأليف كل بعثة من البعثات .

وقد نظم المرسوم التشريعي رقم ٨٩ المؤرخ في ٣٠ حزيران من سنة ١٩٤٧ أصول هذا التعاون بشكل مرض ، وأحاطه بكل الضمانات اللازمة . وتقوم حالياً ست بعثات في العمل في ميادين الحفريات السورية ، وهي تجمع علماء ينتمون إلى أربع دول مختلفة : رأس شمرا (فرانسا) ، ماري (فرانسا) ، أفاميا (بلجيكا) ، سيرهوس (فرانسا) ، الرصافة (ألمانيا) ، تل الصالحية (السويد) . كما تقوم مديرية الآثار العامة السورية من جهتها بحفريات عديدة مختلفة في تدمر ، وبصرى ، وجبلة ، والرقة . وسنتكلم في مناسبات عديدة عن هذه الحفريات خلال فصول تقريرنا المقبلة .

ثم يجدر أن ننوه أيضاً بالكتب والمطبوعات التي قدمت فيها نتائج الحفريات ، ووصفت ، وحللت ، وعلق عليها ، والتي يؤلف بعضها سلاسل ضخمة من المجلدات . ويجب أن تضاف إليها الدراسات المتعددة في الآثار والتاريخ ، وتاريخ الفنون ، وتاريخ الديانات ، (والأوابد السورية كما لا يخفى أحد مصادرها الرئيسية) ، والدراسات المتعلقة بالأوابد ، والمدن والمناطق ، والدراسات ــ الفهارس ، والكاتالوجات . ولا نحتاج للتأكيد على أهمية وفائدة هذه المؤلفات العلمية التي لولاها لم يكن للأوابد إلا إشعاع محدود ، والتي ما كان يمكن أن توجد إذا لم تقم سورية بتشجيعها . ومهما يكن فقد كان من أثر هذه المؤلفات أن أصبحت أوابد هامة غالباً ، وبعضها سيتغير بعض التغيير أو سيزول (كما سنذكر فيما بعد عدداً من الأمثلة على ذلك) معروفة في كل الأصقاع ، كما أنها غدت من المواد العامة المستخدمة لدى كل البلاد في الدراسات الجامعة . وكان في ذلك دعاية واسعة وحسنة لسورية .

ولن نذكر هنا بين هذه المنشورات القيمة ، إلا المجلات والسلاسل التي كانت غايتها الرئيسية دراسة الآثار والأوابد السورية . ومنها مجلة سيريا والسلسلة الجميلة المجلدات المعروفة باسم المكتبة الأثرية والتاريخية (وسنقتصر بالاشارة إليها فيما بعد بحروفها الأولى م ، أ ، ت ، B . A . H) التي ينشرها المعهد الأثري الافرنسي في بيروت ، ومجلة الدراسات الشرقية للمعهد الافرنسي في دمشق ، ومجلة الحوليات الأثرية السورية ، ومختلف المنشورات التي تصدرها مديرية الآثار العامة في سورية . وفي كل هذه المطبوعات دليل على الأهمية التي تثيرها الثروات الأثرية والفنية السورية في العالم ، وإشارة إلى الصدى المستحب الذي يلقاه في كل أطراف الدنيا ، كل جهد تكون غايته صيانة أوابد هذه البلاد الرائعة .

حفظ الأوابد وترميمها :

وتخصص مديرية الآثار العامة السورية قسماً مهماً من فاعليتها ، ومن مواردها المالية لتقوية الأوابد وإعادة المتهدم من أجزائها . وهي تضم في دمشق وحلب ، فنيين ممتازين يتفرغون تماماً لهـذه الأعمال . وتدل زيادة موازنتها السنوية التي ارتفعت من مبلغ (٦٢٣،٠٠٠ ل . س) في سنة ١٩٤٩ ، إلى مبلغ (١،٠٠٧،٠٠٠ ل . س) في سنة ١٩٥٣ ، على الاهتمام الذي تعلقه السلطات العليا في البلاد . على الآثار

ولعمري إن هذا جهد رائع يجب في بادىء الأمر أن يعرف إلى العالم المتمدن ، ويعبر عنه بقائمة معجبة من أعمال الترميم الأثري التي جرت خلال السنوات الأخيرة في كل أنحاء البلاد . وقد قامت هذه الأعمال في دمشق خاصة في القلعة وفي أبواب المدينة وسورها ، والقوس الروماني في الشارع المستقيم ، وفسيفساء الجامع الأموي ،

وعدد كبير من المساجد والمدارس ، وفي حلب خاصة ، في القلعة ، وسور المدينة ، ومطبخ العجمي ، وفي بصرى ، وتدمر ، وقصر الحير الشرقي ، وفي حمص ، واللاذقية ، وقلعة سمعان ، وقلعة الحصن ، وفي عدد مهم من الأوابد الخاصة التي ترجع إلى العصور القديمة والعصور المتوسطة .

إلا أن حاجات الآثار في سورية واسعة جداً ، بحيث أنها تضع أمام الدوائر المسؤولة قضايا مقلقة . إذ أن كثرة الأبنية الأثرية (يوجد في دمشق وحدها ١٢٥ بناءاً مسجلاً) ، وتوزعها في رقعة البلاد الواسعة ، وحجومها الضخمة ، وعدم العناية سابقاً بها ، توجد كثيراً من الصعوبات . لهذا فلا يمكن أن تهتم مديرية الآثار العامة بكل الأوابد ، ويجب عليها أن تقيم لأعمالها منهاجاً يتوزع على عدد كبير من السنوات ، وأن تخف خاصة إلى مداواة الأبنية التي لا تسمح حالتها بالانتظار .

وتنشأ صعوبات أخرى عن أوضاع الأوابد الحقوقية . إذ أنه من الواضح أن الدولة لا يمكنها أن تغطي كل نفقات الترميم ، إذا كانت لا تملك الأبنية المراد ترميمها . إن أصحاب الابنية المذكورة غالباً من الفقراء الذين لا يستطيعون الانفاق عليها . كما أن عدداً من هذه الأبنية في حيازة بعض الهيئات الرسمية أو الخاصة الغنية ، إلا أن هذه الهيئات تهمل العناية بها متعمدة ، لانها لا توفر لها أرباحاً ما . ومن المحتمل أن تزود السلطات الاثرية بأسلحة حقوقية ماضية تساعدها على التدخل في صالح هذه الأبنية . فقد اطلعنا على مشروع قانون قيد التهيئة ، قد أقيم على أحدث المفاهيم ، وسوف يعرض قريباً على المجلس النيابي للتصديق ، وفي المادة الخامسة منه ما يلي : « على الأوقاف والبلديات أن تخصص جزءاً معيناً من مواردها لترميم الأبنية الأثرية التابعة لها ، وعلى الأفراد أن يتولوا الأبنية الأثرية التابعة لهم بصورة مباشرة ، وان عجزوا عن ذلك قامت مديرية الآثار العامة بإسلافهم المبالغ اللازمة دون فائدة لترميم أبنيتهم خلال مدة طويلة . وفي كل الحالات يجب أن تجري أعمال الترميم الأثري في سورية تحت إشراف المديرية العامة المذكورة . »

وتوجد مادة هامة في المرسوم التشريعي رقم ٨٩ المتضمن نظام الآثار العام في سورية . وهي تجبر البلديات على أن تأخذ بعين الاعتبار مواقع الأبنية الأثرية لدى إقامتها مخططات توسيع المدن ، وتحملها على أن تطلب قبل تصديقها رسمياً موافقة مديرية الآثار العامة عليها . ونأمل أن تنفذ هذه المادة حرفياً حتى يمتنع في المستقبل تهديم بعض الآثار أو تقطيع أوصالها كما جرى في دمشق في تربة صفوة الملك ، وجامع تنكز ، وفي حلب في مطبخ العجمي وخان الوزير .

ومن المرجو أيضاً أن تتخذ بعض التدابير لمنع الأضرار التي يحدثها اللاجئون الفلسطينيون وبعض الفقراء في الأبنية التاريخية كالمدارس والترب ، التي اتخذوها مساكن لهم . وإذا تم ذلك لأمكن أن يظهر ظهوراً تاماً العمل القيم والحاسم الذي تقوم به مديرية الآثار العامة متوخية حفظ الأوابد التاريخية في سورية .

المتاحف

ولا يمكن أن تعد المتاحف ، ولا سيما المتاحف السورية ، كقاعات تعرض فيها الآثار عرضاً دائماً . لأن الآثار تأتي من كل مناطق التنقيب وتتطلب من الدوائر الفنية المختصة في العاصمة عناية فائقة من جهة ، ومن جهة أخرى تتوجب العناية بالمكتشفات العفوية ، ويترتب حفظها بالقرب من أمكنة اكتشافها عن طريق ايجاد متاحف محلية أو مستودعات إقليمية لها .

وقد نهضت مديرية الآثار العامة لتحقيق هاتين النزعتين المتضاربتين اللتين تتجاوبان مع رغائب مشروعة ، وتتضمنان فوائد جمة يمكن أن تأمن في إيجاد متحف وطني كبير وغني في العاصمة ، وفي ضرورة اشراك بقية المدن السورية في الاهتمام بالقضايا الفنية والاثرية ، عن طريق المساعدة على انماء متاحفها .

والمتحف الوطني بدمشق ميزة نادرة ، وهي أنه بني خصيصاً لما أريد أن يعرض فيه . ونحن معتادون في أوربا أن نحول إلى متاحف القصور القديمة التي لم تبن لتحقيق هذه الغاية . ولهذا فاننا نراع كل الروعة من جو المتحف الوطني الدمشقي الذي أوجد لعرض وإعادة تشييد ثلاث مجموعات كبرى من عصور وطبائع مختلفة . وهي ، مدفن يرحاي التدمري مع زخارفه الفنية المنحوتة ، وكنيس دورا أوروبوس مع صوره الجدارية التي صينت بأعجوبة ، وقصر الحير الغربي الأموي ، مع سور قاعاته وزخارف نوافذه وأبراجه الجصية المتنوعة تنوعاً ليس له مثيل . أما بقية القاعات ذات الآثار التي ترقى عهودها إلى العصور القديمة والمتوسطة ، فانها منظمة تنظيماً دون تنظيم الأجنحة السابقة . إلا أنها تحوي آثاراً لها قيم نادرة ، وأهمية عظمى . ومنها النصب الآرامي المعروف باسم نصب قرية سفيرة ، وخوذة حمص الفضية ـ البرونزية ، وصور دورا أوروبوس الجدارية ، والتماثيل التدمرية الحجرية البيضاء ، والتماثيل الحورانية السوداء البازلتية ، ومشاهد الفسيفساء المنتزعة من شهباء ، وضريح خاتون تحفة الخشب المنحوت ، والحلي ، والأحجار الكريمة المنحوتة ، والأدوات البرونزية ، والقطع القاشانية التابعة لعهود مختلفة . وتضيق قاعات العرض الحالية بكل هذه الآثار ، لهذا فانه أضيف جناح غربي إلى المتحف المذكور ، وهو قيد الانهاء في وقتنا هذا ، وسوف يخصص بالآثار الاسلامية . وبذلك ستتوزع أقسام المتحف توزيعاً منطقياً ، ويصبح بالامكان تخصيص قاعات لعرض الآثار عرضاً موقتاً .

وقد جمل في متحف حلب جميع المكتشفات الأثرية التي ترقى عهودها إلى ما قبل عصر الاسكندر (١) . ولهذا المتحف صفة خاصة وفريدة . لأن الزائر يرى منذ ما يدخل من بابه تماثيل بازلتية ضخمة ، وأساداً ونيراناً ، وألواحاً حجرية هائلة تمثل مشاهد صيد وحروب . وهذه هي الآثار الحثية والآشورية التي عثر عليها في تل حلف ، وتل أحمر ، وأرسلان تاش . أما التماثيل التي وجدت في أطلال مدينة ماري ، فانها أصغر حجماً ، وذات نسب إنسانية . وتتطلب الأشياء الواردة من رأس شمرة (أوغاريت) ومن ماري زيارة جديدة . ومهما يكن فان مبنى المتحف الحالي قديم ، ولا ينسجم مع الغاية المستعمل لأجلها ، بسبب سوء الإضاءة ، وحجوم القاعات . وتعالج مديرية الآثار العامة إمكانية بناء متحف جديد ، يمكن المجموعات الأثرية المتقدمة أن تجد فيه مجالاً رحيباً ، وشرائط صالحة لكي تعرض أحسن عرض .

ويوجد أيضاً متحفان اقليميان في السويداء وتدمر . ويحوي الأول مجموعة من التماثيل البازلتية وألواحاً من الفسيفساء . أما الثاني فانه مستودع يضم كثيراً من الكتابات الأثرية والتماثيل . وفي نية مديرية الآثار العامة أن توجد متاحف أخرى في دير الزور ، وحمص ، وحماة ، وطرطوس أو اللاذقية . ونتمنى أن تجعل في هذه المتاحف مكتبات تحوي بعض الكتب العامة في التاريخ والآثار وبعض المنشورات عن المناطق التي تمثل في تلك المتاحف . ومن الجدير أن يذكر أن مكتبة متحف دمشق تقدم للمطالعين خدمات قيمة ، ومن الفائدة أن تكمل مكتبة متحف حلب .

وأخيراً يجدر بنا أن نذكر بعض المنشورات المتعلقة بالمجموعات التي أتينا على ذكرها :

سليم عبد الحق : معرض المكتشفات الأثرية لسنة ١٩٥٢ في متحف دمشق . باللغات الثلاث العربية والافرنسية والانكليزية دمشق سنة ١٩٥٢

معرض المكتشفات الأثرية لسنة ١٩٥٢ في متحف دمشق . مجلة الموزيوم المجلد السابع ١٩٥٤ . باللغتين الافرنسية والانكليزية .

أندره عبد الحق : معرض المكتشفات الأثرية في متحف دمشق ، المجلد الثاني من مجلة الحوليات الأثرية ، باللغة الافرنسية . دمشق سنة ١٩٥٣ .

سليم وأندره عبد الحق : الكاتالوج المصور لجناح الروماني - اليوناني في متحف دمشق . باللغة الافرنسية . دمشق سنة ١٩٥١ .

سليم عبد الحق : إعادة تشييد جناح من قصر الحير الأول في متحف دمشق ، الجزء من مجلة الحوليات الأثرية . باللغة العربية ، دمشق ١٩٥١ .

ميشيل ابكو شار : متحف دمشق الجديد ، مجلة للموزيوم ، الجزء ٥٥ - ٥٦ سنة ١٩٤٦ ص ١٠٧٠ - ١٤٤ .

٥ . ف بيرسون : دليل كتيب دورا أوروبوس . باللغتين الافرنسية والانكليزية ، بيروت سنة ١٩٣٩ .

غ . بلوادو روترو : متحف حلب الوطني . حلب ١٩٣٢ .

صبحي الصواف : حلب ، دليل الزائر . حلب ، سنة ١٩٥١ ، ص ٢٦ - ٣٣ .

موريس دونان : كاتالوج متحف السويداء .

الاستفادة من الأوابد

يمكن لجهود مديرية الآثار العامة في دراسة الآثار التاريخية ، وحمايتها أن تثمر ، إذا فهمت هذه الجهود ، وحبت . ويجب لذلك القيام بدعاية ذكية تعتمد على وسائل التربية والسياحة ، وتنظيم المدن ، حتى يعطف كل السوريين عليها ويهتمون بها . ويجب لذلك أن يبين بوضوح أن الأوابد ليست عبأً ثقيلاً ، بل قيمة ايجابية وحية لكل إنسان . وقد يؤثر بنجاح في هذه الدعاية ، ويمكن أن تتابع وتكمل في عدة نواح . فمن الناحية التربيوية يمكن ايقاظ الاهتمام بثروات البلاد الفنية بنشر المطبوعات المصورة ، وتنظيم المعارض وإلقاء المحاضرات . ويلاحظ أنه توجد بعض المطبوعات المفيدة عن دمشق ، وتدمر ، وبصرى ، وحلب . ويمكن بسهولة الاكثار منها . ويجدر أن تحوي صوراً جميلة ، وأن تترجم إلى عدة لغات . وقد قامت مديرية الآثار العامة أيضاً بتنظيم عدد من معارض الفنون الجميلة في متحف دمشق ، وافتتحت قاعات قصر الحير بحفل رائع ، ثم أجرت في هذا المضمار تجربة ناجحة جداً باعدادها معرضاً فخماً هو معرض المكتشفات الأثرية التي عثر عليها في مناطق التنقيب السورية في سنة ١٩٥٢ . وقد لاقى هذا المعرض نجاحاً كبيراً يستحقه كل الاستحقاق ، ورأينا بأعيننا إقبال الزوار على مشاهدته ، وشاهدنا كثيراً من هؤلاء الزوار الذين ينتمون إلى طبقة فقيرة ، يتجمعون أمام الواجهات الزجاجية المخصصة لمعرض آثار ماري ، ورأس شمرة ، والرقة ، ويهتمون بها . ثم يطوفون بأبهاء المتحف وقاعاته الأخرى ، ويقدرون الثروات الأثرية المتجمعة فيه . ومن المفيد أن تقوم الحكومة السورية التي تشجع تأليف طبقة من المختصين بالآثار وترسل البعثات إلى البلاد الغربية ، وتبذل جهوداً جبارة في حقل التعليم ، بايجاد دروس خاصة في تاريخ الفنون ، وفي الآثار السورية الوطنية في المعاهد العالية وفي المدارس الثانوية .

---

(١) لقد عدل من هذا التقسيم مؤخراً . ونص المرسوم التشريعي رقم (١٣٠) الصادر في ١٩٥٣/١٠/٧ :

على أن يحوي المتحف الوطني بدمشق الأجنحة التالية :

جناح للآثار السورية الشرقية القديمة ، وجناح للآثار السورية في العهود اليونانية والرومانية والبيزنطية ، وجناح للآثار العربية والاسلامية وجناح للآثار المعاصرة والحديثة .

كما يحوي متحف حلب الاجنحة التالية : ثلاثة أجنحة تشابه اجنحة متحف دمشق الثلاثة الأولى ، وجناحاً رابعاً للتقاليد الشعبية للمنطقة الشمالية .

ويمكن إذا شجعت السياحة أن تساهم حركتها إلى حد كبير في حماية الأوابد التاريخية ، وذلك عن طريق إقناع الناس بأن هذه الأوابد يمكنها أن تكون مورداً من الموارد الاقتصادية النافعة . ومن اللازم أن نقول إن ثروات سورية الفنية لم تستثمر بعد . وذلك لأن الحركة السياحية في هذه البلاد ما زالت ضعيفة جداً ، بسبب فقدان الأجهزة اللازمة لها ، وبسبب انعدام الدعاية . ولا ريب أنه إذا وجدت مؤسسة سياحية نشيطة تسندها الدولة لأمكنها أن تقوم بعمل خصب جداً . ويكفي لذلك أن تصلح بعض أجزاء الطرق ، وأن تبنى بعض الفنادق الصالحة البسيطة في أمكنة مختارة ، أو أن توجد (منازل السياحة) التي يمكن للزائر أن يجد فيها إمكانية لكي يطعم ويستريح في جو لطيف . وبذلك يجذب الأجانب إلى هذه البلاد التي لها بآن واحد جمال طبيعي أخاذ ، وأوابد رائعة . ومن المستغرب أن يتعذر الوصول إلى مناطق ساحرة جداً كتدمر ، وقلعة سمعان ، وقلعة الحصن . ورأينا أنه ليس من الصعب تنظيم السياحة ، وتوجيه تياراتها إلى سورية عن طريق البر والبحر والجو . وأمامنا مثل اليونان التي نظمت السياحة في بلادها خلال عدد من السنوات ، فانتعشت اليوم فيها هذه الحركة ، وأصبحت تدر على اقتصادياتها بأرباح جسيمة .

أما تنظيم العمران فستحدث عنه بشيء من التفصيل لدى كلامنا عن دمشق وحلب . ونكتفي بالقول في هذا المقام ، إننا نأسف لأن الأوابد القديمة ما زالت في غالب الأحيان تعد كعناصر غير مرغوب فيها لدى منظمي مصورات توسيع المدن وتنظيمها . على حين أنها يجب أن تكون أجمل مواضيع هذه المصورات وأكثرها جاذبية لدى تجديد الأحياء القديمة ، وفي الواقع إن تنظيم الأوابد لا يتعارض البتة مع نمو مدينة ما . بل أنه يضع على بساط البحث قضية يجدر دراستها بالاتفاق مع خبير مختص من الخبراء التابعين لمديرية الآثار العامة . وإذا جرى ذلك بشيء من الفن والذوق لنتج عنه أهمية كبرى للمؤرخين المتعلقين بآثار الماضي ، ولجعل الناس مشغوفين بآثارهم ، ولفتح أمام أعينهم مواطن الجمال في هـذه الآثار ، وجعلهم ينظرون إليها كزينة لا بد منها لحياتهم اليومية .

بعض المصادر المختصرة :

ر . ديسو : الطوبوغرافيا التاريخية لسورية في العصور القديمة والمتوسطة . باريس . سنة ١٩٢٧ ، بالافرنسية .

ر . فيدين : سورية ، لوندرة . ١٩٤٧ ، بالانكليزية .

الدليل الأزرق ، سورية ـ فلسطين ، باريس ١٩٣٢ ، بالافرنسية

ب . حتي : تاريخ سورية ، لوندرة ١٩٥١ ، بالانكليزية .

أ . هونيغان : مادة سورية موسوعة (ديل ـ انسيكلوبيديا) ستوتغارت ١٩٣٢ ، بالألمانية .

أ . لامانس : سورية . موجز تاريخي ، بيروت . ١٩٢١

كتاب أصول الحفريات الأثرية باللغة الانكليزية ، اصدار المؤسسة الدولية للتعاون الفكري ، باريس ١٩٤٠ (نشر هذا الكتاب باللغة الافرنسية في مجلة الموزيون ، المجلد ٤٥ - ٤٦ ، باريس ١٩٣٩) .

ج . سوفاجه : فن العمارة في سورية ، مجلة الفنون الآسيوية ، المجلد الثامن ، ١٩٣٤ ، ص : ١٩ - ٥١ ، بالافرنسية .

دمشق

١ – تشكل المدينة :

تعد دمشق ، القائمة على حدود الصحراء ، وسط سهل الغوطة الواسع الذي يرويه نهر بردى ، في موقعها الجغرافي ، وفي مياهها ، وحدائقها ، المقومات الأساسية لحياتها ونموها . وتتحدث تركيب أحيائها ، وعمارة بيوتها وأوابدها وشوارعها ، عن العصور المتعاقبة التي نشأت فيها ، وعن تاريخها السياسي ، وصناعاتها ، وتجارتها .

وقد تألفت نواتها الحالية في زمن إلحاق سورية بأمبراطورية الإسكندر . إذ قامت آنئذ في شرقي المدينة الآرامية القديمة ، مدينة على نموذج إغريقي ، بتخطيط منتظم دعت اليه الحاجات العمرانية . ويمكن عد هذا التخطيط مثلياً حتى يومنا هذا ، لأنه تألف من جزيرات مستطيلة ، طول كل منها نحو ١٠٠ متر ، وعرضه نحو ٤٥ متراً .

ولما اشتركت سورية بحياة الأمبراطورية الرومانية استفادت دمشق فائدة كبرى ، وحدثت فيها أعمال التجديد العمراني خاصة في زمن الامبراطورين (سبتيم سيفير) و (كارا كالا) ، واكتسبت الشوارع اهمية تتناسب مع مواقعها قرباً وبعداً من أبواب سور المدينة . و (الباب الشرقي) الحالي هو جزء من الباب الشرقي القديم ، الذي كان يقع في نهاية الشارع المستقيم . وقد أعيد تركيب فتحه من فتحات قوس (ضخم قديم) [1] منذ مدة قريبة ، في جزء من التخطيط القديم لهذا الشارع .

كما ان الأطلال الرائعة في غربي المسجد الأموي هي بقايا معبد (جوبيتر الدمشقي) ، وتتألف من أعمدة كورنثية كانت لأحد مداخل المعبد ، وفوق هذه الأعمدة بعض الأقواس ، وما تحمله من أطاريف ضخمة منحوتة .

وظلت دمشق تابعة إلى روما ثم إلى بيزنطة ، حتى فتحها العرب . فجعلوا منها في ظل سلالة الامويين عاصمة لامبراطورية كبرى ، ومركزاً سياسياً وثقافياً ودينياً كبيراً . وكان قلبها (الجامع الاموي) الذي بناه الخليفة الوليد بن عبد الملك مكان المعبد الوثني القديم ، وكنيسة القديس يوحنا المعمدان . وقد وفق المهندسون الشاميون مخطط المسجد مع مجموع أطلال الأبنية القديمة ، وأدخلوا في تركيب بنائه بعض أجزاء هذه الأبنية ، ونثروا مشاهد الفسيفساء الرائعة ، وأعاجيب الصنائع الفنية الدقيقة على أطراف صحنه . حتى غدا هذا المسجد آية من آيات العمارة ، واشتهر ، وذاع صيته اشتهار وذيوع صيت مسجد عمر في القدس .

ولما جاء زمن العباسيين فقدت دمشق صفتها كعاصمة ، وزالت منها آثار الامويين ، وهدمت منشآتهم ، وأزيل سورها الحصين لكي يأمن للخلفاء العباسيين إخضاع سكانها ، ومنع ثوراتهم . ومرّ عليها عهد من الفوضى والاضطراب ، ونشأت خلالها نقابات الحرف ، وازدهرت حياتهم النقابية . ولم تعد المدينة جسماً متماسكاً ، تصرفه الادارة التي تملك السلطات العليا العامة ، وتدير شؤون المجتمع ، وانقسمت إلى أحياء مستقلة ، يشبه كل منها مدينة صغيرة . وكانت هذه الاحياء تتنافس ، وتملك تنظيماتها الخاصة ، وفي كل منها مسجد وحمام وأسواق ، ولكل واحد حدود وباب ، وشيخ تحت تصرفه قوات نقابية .

---

(١) هذا القوس هو القوس الذي عثرت عليه مديرية الآثار العامة سنة ١٩٤٧ في حي الأمين . وكان منخفضاً بنحو (٥،٥٠ م) عن سوية الشارع الحالي . وقد نزعته ، وفككته حجراً حجراً ، وأعادت تركيبه وترتيبه بعد أن رفعته إلى حذاء الطريق .

ونتج عن هذه الظروف نظام جديد للملكية ، ومفهوم جديد للحياة المدنية ، وتشكلت هيئات جديدة للدفاع عن حقوق النقابات الخاصة كانت لها صفات دينية ومهنية .

٢ – العصر الايوبي :

وقام الأتابكة السلجوقيون ثم السلاطين الأيوبيون من بعدهم بإعادة الأهمية الثقافية والدينية إلى دمشق ، وأرجعوا لها صفتها العسكرية . وذلك لأنهم كانوا متحمسين لإعلاء شأن الاسلام السني ، والدفاع عن الشام ضد الصليبيين . وقد توزعت أحياء المدينة في هذا العصر بحسب المذاهب الدينية ، فتمركز المسيحيون في الشمال الشرقي من المدينة القديمة ، وأقام اليهود في جنوبها الشرقي ، وشغل المسلمون كل ما عدا ذلك ولا سيما قسمها الغربي . وهنالك نشأت المدارس الكثيرة والأبنية العامة . وشيدت القلعة . وقد استخدم في بنائها أسس السور القديم ، وبعض أحجاره . وانشطرت عن المدينة بعض الأحياء التي تألفت بعيداً عن النواة العمرانية القديمة . وشيدت المساجد والمدارس في المناطق النائية ، وحول جبل قاسيون حيث ينسجم الجو مع الدراسة والتعبد . وما زال قائماً من هذه الأبنية نحو خمسين بناء . وقد هجر بعضها ، وتهدم بعضها الآخر ، وتبدلت معالم قسم غير يسير منها ، أو أنها ضمت إلى أبنية حديثة .

و (بيمارستان نور الدين) أعظم أبنية هذا العهد في المدينة القديمة . وهو أحد المستشفيات المشهورة جداً في العالم الاسلامي . وله أهمية كبرى . ومما يؤسف أنه أحيط بعدد من الأبنية الحديثة ، وله باب ذو زخارف فنية غريبة ، قوامها المقرنصات ، ولهذا الباب مصراعان جميلان ، وفوقه جبهة كلاسيكية . ووراءه دهليز مغطى بقبة صغيرة مضلعة منتفخة ، قائمة على عنق مخروطية فوقها المقرنصات المتتالية ، التي نشاهد أيضاً من خارج البناء ، كما هو الأمر بمدفن زبيدة بالقرب من بغداد . وفي صحن البيمارستان إيوانان جميلان ، وبعض بقايا الزخارف الخطية ، ونوافذ ذات زخارف جصية بديعة .

وفوق (المدرسة النورية) الواقعة إلى الجنوب من المسجد الأموي قبة تماثل قبة البيمارستان . غير أن باب هذه المدرسة لا يشبه باب البناء المتقدم . إذ أنه يتصف باحتوائه على موضوع زخرفي جديد هو المفتاح الحجري المدلى الذي يشاهد أيضاً فوق باب (المدرسة العادلية) ، التي تعد آية من آيات البناء الصلب والتجهيز المعماري القوي . وقد رسم مخطط هذا الباب ، ونفذ حسب أصول العمارة السائدة آنئذ في سورية الشمالية وأساليبها . ويشغل المجمع العلمي العربي حالياً هذا البناء . وقد أصلح ورمم ، وأجريت فيه بعض التعديلات بعناية فائقة . وهو يؤلف مع المدرسة الظاهرية (وهي المكتبة الوطنية حالياً) التي كانت بيت والد صلاح الدين ، ثم جعلها الظاهر بيبرس مدرسة ومدفناً ، ومع المدرسة العزيزية (مدفن السلطان صلاح الدين الأيوبي) شمالي الجامع الأموي ، مجموعة مهمة من الأبنية التاريخية التي ما زالت تحتفظ بكثير من المخلفات الفنية ، والكتابات ، والفسيفساء ، والأبواب ، والنوافذ القديمة .

وعلى هذا فان الحياة الفنية في عهد نور الدين وصلاح الدين في دمشق ، تختص بأنها متأثرة من فنون بلاد الرافدين وسورية الشمالية .

وتقوم شمالي نواة المدينة القديمة ، في المنطقة الواقعة بين النهر وشارع بغداد الجديد ، عدةمدافن منها (مدفن ست الشام) (سنة ١١٧٢) . وهو أقدمها ، وله قبة قائمة على عنقين . ومدفن (السلطان حسن) ذو القبة المضلعة ، وتزينه زخارف جصية وتصاوير جميلة ، و (المدرسة الشامية) ، وتحوي أجمل مجموعة جصية منحوتة في دمشق ، وكتابات قديمة ، وبعض النوافذ الزجاجية الثمينة . وهنالك أيضاً (تربة ابن المقدم) أمير حلب ، وهي بناء يشابه الأبنية الحلبية المعاصرة . ويقع إلى شرقي المدينة (جامع التوبة) ، وقد أنشىء على شكل جامع بني أمية وتخطيطه . وله أهمية كبرى ناشئة عن عمارته ، وتزييناته ، وبابه ، ومحرابه ، ونوافذه الزجاجية .

وقد تألف حي الصالحية على سفح الجبل حول مجموعة من المدافن والمدارس والمساجد التي هجرت اليوم ، أو أنها لم تستخدم بشكل مرض . ونشاهد في موقع جميل من نهر يزيد عدد من الأعمدة كانت جزءاً من أقدم مدارس الصالحية ، وعدد من الأوابد التي بناها أعيان بلاط نور الدين أو بلاط صلاح الدين . ومعظم هذه الأوابد مدافن تعلوها قباب من الآجر .

وبعض هذه القباب مضلعة ، وبعضها مزدوجة ، وقائمة على رقبتين مزينتين بأقواس صغيرة أو محاريب منحنية أو مزدوجة . ويحوي كثير منها أضرحة خشبية منحوتة ، ونوافذ زجاجية قديمة ، وعوارض حجرية عليها كتابات رشيقة ورموز .

وفي (الجامع المظفري) المبني (سنة ١٢٠٢) زخارف مهمة جداً ، وفريدة في نوعها . وهذا الجامع من أقدم المساجد الأيوبية ، ويذكرنا مخططه بتخطيط الجوامع الأموية . ويشاهد

حول صحنه بعض الأعمدة القديمة التي استخدمت هي وتيجانها في الأروقة ، كما يشاهد في أبواب الحرم السبعة عوارض خشبية منحوتة مزينة بزخارف خطية محفورة . وقد احتفظ بابان من هذه الأبواب بكوتين من الجص المخرم . وفي داخل الحرم عدة نوافذ زجاجية قديمة .

ومن الواجب ذكر (المدرسة الأتابكية) التي أنشأتها الأميرة تركان خاتون ودفنت فيها . ولها باب مزين بالمقرنصات . ويبدو اليوم هذا الباب كأنه محطم لما أضيف عليها من عناصر متفرقة أخفت أعمدة الزوايا . ويتوجب رفعها ويلاحظ أن شكل مقرنصاته ، وأحجار قوسه ، وصنعة كورنيشه ، ذات صفات فريدة لا تخلو من بعض القسوة .

وامتد هذا الحي فيما بعد ، واتسع كثيراً ، وأضيف إليه حي الأكراد في زمن صلاح الدين ، وحي المهاجرين في نهاية القرن التاسع عشر . وفي وسطه حالياً جامع محيي الدين الذي بناه السلطان سليم سنة (١٥١٨) حول ضريح الصوفي المشهور . ويحوي هذا الجامع أيضاً قبر الامير عبد القادر الجزائري . وله مئذنة جميلة ، وتزينه ألواح بديعة من القاشاني الثمين .

٣ — عصر المماليك :

وتابعت دمشق تطورها وانتشارها خارج سورها في فاتحة عصر المماليك . واختصت صناعاتها تبعاً لأذواق العصر بالمنتجات الثمينة . وقد ساعد الصليبيون أنفسهم على توثيق علاقاتها بالعالم الغربي . فجعلت ترتبط شأن مدينة حلب بعلاقات تجارية مع فرانسا الجنوبية ، ومدن جنوا وبيزا والبندقية الايتالية . وعرفت في كل مكان بمصنوعاتها الفنية كالأقمشة الحريرية ، والأدوات النحاسية ، والأسلحة والأواني المطلية بالمينا ، والأشياء الزجاجية . ونشأ عن هذه الفاعلية الصناعية أن اتسعت أسواقها ، وانتشرت شمالي القلعة في منطقة (سوق الخيل) ، حيث بني (جامع يلبغا) سنة (١٢٦٤) .

وقام حكامها العسكريون وأفراد أسرهم يحتذون مثل سلاطين القاهرة ، ويبنون عدداً كبيراً من المدارس والمدافن . وقد انتشرت هذه المدافن خاصة على طول طريق الحج ، التي تتجه من طرف المدينة الجنوبي الى مكة ، حتى يستفيد أصحابها الموتى من دعاء الحجاج حين مرورهم بقبرهم . ونشأ على طرفي هذه الطريق حي جديد هو حي الميدان ، وكانت صفته تتفق مع طبيعة تجارة الحج الخاصة . وقد ألف هذا الحي ضاحية المدينة طولها ثلاثة كيلو مترات ، متصلة بجسم المدينة بمجموعة من الأسواق (السنانية) الواقعة خارج الباب الغربي من السور ، بين حي الشاغور وحي قصر الحجاج . وقد تمثل حي الميدان قرية القبيبات القديمة ، وهو ينتهي بباب الله الذي كان يخرج منه الحجاج للسير نحو الحجاز .

ويطول تعداد كل الأوابد التي بنيت في هذا العهد ، والتي ما تزال قائمة في الأحياء المذكورة . حتى أن مديرية الآثار العامة لم تسجلها جميعها ، على الرغم من أن لبعض المآذن والبرك غير المسجلة ، أهمية فائقة لأنها تساهم في خلق الجو الدمشقي الخاص ، ولأنها تحوي عناصر فريدة ، قد لا تظهر دوماً بسبب التغيرات الكثيرة التي طرأت عليها ، أو بسبب ما تعاقب عليها من إصلاحات سيئة أخفت مزاياها .

ولن نذكر هنا إلا بعض الأبنية التي تمتاز بصفات فريدة خاصة ، مثل تربة الأفريدونية (جامع العجمي) ، الواقعة في أول حي الميدان . وهي مدرسة أسست لتعليم القرآن ، وقد دفن فيها التاجر الفارسي (افريدون) المتوفى سنة (١٣٤٨) . وواجهتها جميلة ، وتتألف من صفوف من الأحجار البيضاء والسوداء متعاقبة على شكل متوازن ، حاوٍ لعناصر زخرفية منسجمة مع بعضها انسجاماً كلياً . وهذه العناصر كثيرة ، وفيها الأطناف ، والكوات ، وباب مزين بالزخارف المنزلة . ولهذا الباب قبة على شكل الصدفة ، ومقرنصات بديعة ، وكتابات خطية ، وقوس يتألف من قطع حجرية متداخلة ، وألواح مستطيلة ذات زخارف نباتية محفورة . وقد نسخ الفنانون الدمشقيون هذه الزخارف فيما بعد ، وزينوا بها عدداً من الأبواب الأخرى .

ويقع الى جنوبي هذه التربة تربة يطلق عليها اسم (الولي الشيباني) . وعمارتها بسيطة غير أنها جميلة . وواجهتها ذات مداميك منحوتة نحتاً جيداً ، وفيها باب مقرنص ، ونافذتان موصولتان بعارضة مشتركة متألفة من ثلاثة صفوف من الأحجار الأوسط منها من أحجار مدككة ، وفوق العضادة التي تفرق بينها كوة مستديرة ، وتغطي البناء قبة قائمة على رقبة تتوزع حولها ست عشرة نافذة .

وفي وسط الميدان تقوم (تربة عراك) ، وهي من نفس العصر (سنة ١٣٤٩) . وتخطيطها أكثر تعقيداً من تخطيط

التربة السابقة . وتزين واجهاتها القاشاني الأزرق المنزل حول بابها المقرنص والمزخرف بخطوط منزلة أيضاً . وعلى أطراف هذا الباب المقطوعة مقرنصات أيضاً . ويلاحظ فيها أن عوارض النوافذ تقسم سطح الجهاز الملون بالأحجار المدككة ، على شكل متتابع ومزدوج ومتعاكس . كما أن أحجار الأقواس المنظمة على شكل محدب حول الكوات المستديرة كثيرة ، وتؤلف إشعاعات على شكل قوارير . وكذلك فان العوارض مزينة بعناصر هندسية ونباتية . وأخيراً فانه يحيط بكل هذه العناصر زخرفة مكتوبة تتناسب معها وتوحد بينها .

وقد اتسمت العناصر البنائية والزينية المستخدمة في العمارات المتقدمة ، بشيء كثير من التوازن والانسجام ، على واجهات الأبنية المتأخرة ، وعم استعمالها بكثرة زائـــدة على سطوحها ، حتى أصبحت هذه السطوح تشعرنا بكثير من ملامح الفوضى الزينية والتفكك ، والانحطاط الفني ، التي تطبع آخر عصر المماليك بطابعها .

هذا وإن التربة (التينبية) المبنية سنة (١٣٧٧) مركبة تركيباً جيداً ، ولها قباب قائمة على مقرنصات . ولواجهتها باب مقرنص واقع في محورها ، وزخارف جميلة حول كواتها تؤلف منطقة أفقية ، يقابلها داخل الباب ، لوح مزين بزخارف منزلة مرمرية وقاشانية نباتية حول الرمز المملوكي المثل .

وتشاهد هذه الصفات أيضاً في (المدرسة الرشيدية) ، التي جعل في مدخلها حالياً بناء طفيلي ، وحجب جزء من واجهاتها الجميلة باضافات بنائية جديدة . ويتوجب علينا أن نذكر أيضاً بين منشآت المماليك المتأخرة (المدرسة الصابونية) و (المدرسة السباهية) في النهاية الغربيـة للشارع المستقيم ، (والمدرسة المرادية) . وتساهم هذه الأبنية الأثرية بمواقعها الممتازة ، وتحدب قبابها ، وجذوع مآذنها الجميلة ، في خلق أجواء خاصة تحسن منظور هذا الشارع .

ومن منشآت هذا العصر في المدينة القديمة ، وفي أحيائهـا الشمالية ، عدد من الأبنية الأثرية الأخرى . وكنا ذكرنا اسم (جامع يلبغا) الذي يذكرنا تخطيطه بتخطيط جامع بني أمية ، وتشاهد فيه المحاريب والنوافذ المقرنصة المبنية على شكل جميل للغـــاية ، كما تشاهد فيه مناطق للزخارف الجصية المحفورة ، والنوافذ الزجاجية ، والأبواب والمئذنة . ومن اللازم أن يظهر جمال هذا المسجد ، وأن يحسن كل التحسين ، وخاصة واجهاته الخارجية .

ويعود عهد مجموعة من الأبنية الدمشقية المهمة الى زمن (تنكز) نائب الملك في بلاد الشام . ولم يبق من المسجد الذي يحمل اسمه إلا مئذنته الجميلة وبلاطه الرائعان ، على أثر الأعمال العمرانية التي قامت في شارع النصر . غير أن التربة المزدوجة التي شيدتها زوجته والتي تعرف باسم (التربة الكوكبائية) ما زالت قائمة في الشارع المستقيم ، كما تقوم غير بعيد عنها (دار الحديث الشريف) .

ومن آخر أبنية هذا العصر مئذنتان جميلتان (القلعي ، وهشام) في سوق باب الجابية ، وتختصان بتخطيطاتها المتناسقة ، وزخارفها الفنية ، وكذلك مئذنة (جامع المعلق) ، حيث يؤلف شكل عمارتها بواسطة الأحجار السوداء خطاً متصلاً حول محاريبهـا ووردانهـا .

١ – العهد العثماني :

وحدثت في آخر عصر المماليك أزمة اقتصادية شديدة في دمشق ، زاد في وطأتها آثار التخريب التي تركها (تيمورلنك) ، وانحراف تيارات تجارة الشرق الدولية عن سورية ومصر بسبب اكتشاف البرتغاليين لطريق البحرية حول رأس الرجاء الصالح . ولم تستعد دمشق نشاطها الا لما أصبحت في عداد مدن الأمبراطورية العثمانية ، التي وسعت لها حدودها الاقتصادية والسياسية . وفتح نظام الامتيازات الأجنبية المرافئ التركية أمام التجار الاوربيين ، كما أن الحجيج الى مكة الذي كان يتألف في دمشق صار يتطلب منهـــا تأمين الوسائل الكافية لتجهيزاته ، وجمع مؤنه وأغذيته ، قبل اجتياز الصحراء .

وأدت هذه الشروط إلى بناء رباطات كثيرة ، حول باحات تقوم أروقتها على عمد ، ولها دكاكين ، واصطبلات في الطابق السفلي ، وقاعات للنوم في الطابق العلوي . وفقدت المدينة أهميتها الستراتيجية والعسكرية . وأصبحت تحصيناتها العسكرية عديمة الفائدة منذ تشكل الأحياء الخارجية ، فأهملت العناية بهـا ، وملىء خندقها ، وبدأت قلعتها بالتهدم . وصار الباشا الحاكم

يقيم في السراي خارج السور في حي القنوات هو والارستقراطيون الأتراك ، وموظفوا الادارات المختلفة .

وبالقرب من هـذا الحي شيدت المدرستان الأمبراطوريتان (السليمانية) سنة (١٥٥٤) التي بناها المهندس التركي المشهور (سنان) باني السليمانية في القسطنطينية ، و (السليمية) (سنة ١٥٦٦) التي بناها مهندس فارسي . وتؤلف هاتان المدرستان بقبتها المدعومتين بمساند ، وما يحيط بهاتين القبتين الكبيرتين من قبيبات تغطي الأروقة والغرف ، وبالجذعين المخروطين لمئذنتيها الرشيقتين ، وتنظيم أحواض الماء والأشجار والأزهار في باحتيها ، جواً خاصاً جداً يتفق مع ذوق القسطنطينية الذي انسجم دون صعوبة في رحاب دمشق .

ويشاهد في (المدرسة السليمانية) عدد ضخم من المواضيع المعارية والزخرفية الخاصة بهذا العصر . ومنها تزيل المرمر ، وجمل ألواح القاشاني على الجدران ، والمثلثات الملونة فوق الأبواب والنوافذ ، وتزيين الأقواس بالأحجار السوداء والبيضاء المتعاقبة ، واستخدام المقرنصات بكثرة ، وتنظيم المحاريب على شكل الأصداف المتتابعة ، والعوارض المدككة الملونة ذات الأشكال الهندسية الفنية المعقدة . وقد أصبحت تيجان الأعمدة على أشكال مثلثات مجمعة ، وصارت تلون بالاحمر والازرق ، كما أن أعناق الأعمدة وأنطقة قواعدها تلبست بأنطقة نحاسية مذهبة ، وامتلأت السطوح بالمداميك الملونة المتعاقبة .

وقد أعيدت هذه العناصر في مجموعة العمارات التي أنشأها الوالي درويش باشا . وأجلها العمارة القائمة في أول طريق الحج غربي المدينة ، وهي (جامع الدرويشية) الذي تتعاقب صفوف أحجاره السوداء على صفوف أخرى بيضاء ، وترتفع فوقه مئذنته المضلعة المطلية بطلاء قاشاني أخضر . وإلى جانب المئذنة تقوم قبة كبيرة يحيط بها عقد من القبيبات الصغيرة . ويتصل هـذا الجامع بالتربة المجاورة بقوس يعلو الطريق التي تمر من تحته . وتتوزع الرسوم والأشكال والألوان على مستويات المسجد بحيث في كبير جداً . ومن ذلك قبة التربة الكائنة على رقبة ليس لها شكل منتظم ، وقد انتفخت انتفاخة وعلا هذه الانتفاخة رأس مدبب . وإلى الجنوب من هذه العمارة يقوم (جامع سنان باشا) الذي بني في أسواق باب الجابية . وتجمعت فيه الصفات والعناصر الفنية التي تقدم ذكرها . فترى فيه المئذنة الملبسة بالقاشاني الاخضر ، والقبة الكبيرة ، والأقواس المحدبة ، والتيجان الهندسية الخ . .

ولموقع هذا الجامع في جو هذا الحي ، صفة رائعة حقاً لانه يؤلف نقطة مركزية بين الأسواق وطريق الحج .

وقد شيدت في إطار المدينة القديمة بين الجامع الأموي والشارع المستقيم الرباطات المختلفة وحمامان جديدان . وأشهر هذه الابنية (خان الحرير) الذي أنشأه درويش باشا ، وتجلت فيه التقاليد المعارية السورية ممتزجة بالتقاليد المعارية التركية . والواقع انه بناء متناسب جداً ، وتحيط الأروقة باحته الداخلية ، وتقوم مجموعتان من القاعات في طابقه العلوي ، ويصل بين هذه القاعات رواق ضيق ، وتعلوها قباب منتظمة على صفوف ثلاثة .

ويقع أيضاً في هـذه المنطقة من دمشق (خان الجرك) . ويختص أن فسحته الكبيرة المسقوفة قامت مقام الباحة المكشوفة في بقية الخانات . كما يختص بقبابه الكبرى الست المرفوعة على جيوب بين الأقواس . ويشاهد هـذا التخطيط أيضاً في (خان سليمان باشا) المبني (سنة ١٧٣٢) . وفيه فسحة كبيرة فوقها قبتان عظيمتان . وتتحد هنا تأثيرات الحجوم الواسعة المعارية مع تأثيرات التلوين في المداميك السوداء والبيضاء وفي الأقواس ، وفي جيوبها . وقد بنى أسعد باشا والي دمشق وأمير الحج خلال حكمه الذي دام أربعة عشر عاماً ، خاناً جديداً ، وقصراً فخماً بين هذا الخان وبين الجامع الأموي .

ولخان أسعد باشا واجهة يذكرنا تأليفها بفن عمارة مدينة البندقية خلال عصر النهضة . غير أنها تمت بصلة الى التقاليد الفنية السورية الشمالية ، وذلك في صنعة بنائها ، وانتقاء مواضيعها الزخرفية ، واختيار موادها . وتشاهد أيضاً كل العناصر المتقدمة مجردة ومنوعة في بناء قصر العظم سنة (١٧٤٩) . ويلاحظ في هذا القصر التوزيع التقليدي للبيوت الشامية بمجموعتين من القاعات المتميزة (السلاملك والحرملك) ، وبما فيها من باحات ، وأروقة ، وأواوين ، وأحواض الماء ، ونوافيره .

وقد استمرت دمشق حتى يومنا هذا شأنها منذ أقدم عصور تاريخها ، على تمثل ، وتحسين المواضيع الفنية والثقافية التي تتجه إلى واحتها وتلتقي فيها ، بعد أن تسير على طرق التجارة الكبرى ، التي تصل بعضها كل أجزاء المنطقة الواقعة في شرقي البحر الأبيض المتوسط .

٥ - العناية بالأبنية الأثرية :

وقد توخينا من دراستنا المتقدمة عن تشكل المدينة وعن أحيائها ، المختلفة أن نبين صفات ووظيفة عدة مجموعات عمرانية ، يمكن إذا رممت ونظفت ، أن تحسن مناظر الأبنية الأثرية ، وأن تمنح مدينة دمشق بكاملها أهمية وجاذبية كبيرتين . ولا يجب أن ينسى عن البال أنه لا توجد في النواة المدنية القديمة ، أبنية معزولة عن غيرها يحتم القانون المحافظة عليها فقط . بل يجب الاعتقاد أنه يوجد فن عمارة قائم بنفسه ألفته العصور ، وتجسد فيه التاريخ ، وعادات السكان ، وحاجاتهم .

ولا يخفى أن لكل آبدة قيمة ايجابية لانها أثر فني ، كما أن لها قيمة أكبر بكثير إذا كانت قائمة في مجموعة من المنشآت الأخرى ، التي يمكنها أن توضح الغاية من بنائها وتاريخها ، ونسب حجومها وأشكالها . أي أن كل آبدة تكون في مجموع أبنية المدينة ، كحجر صغير من أحجار لوح من الفسيفساء . ومهما كانت قيمة هذا الحجر الصغير ثمينة ، فان ما يجعل اللوح الفسيفساء قيمة ما هو مجموع الأحجار الداخلة في تركيبه .

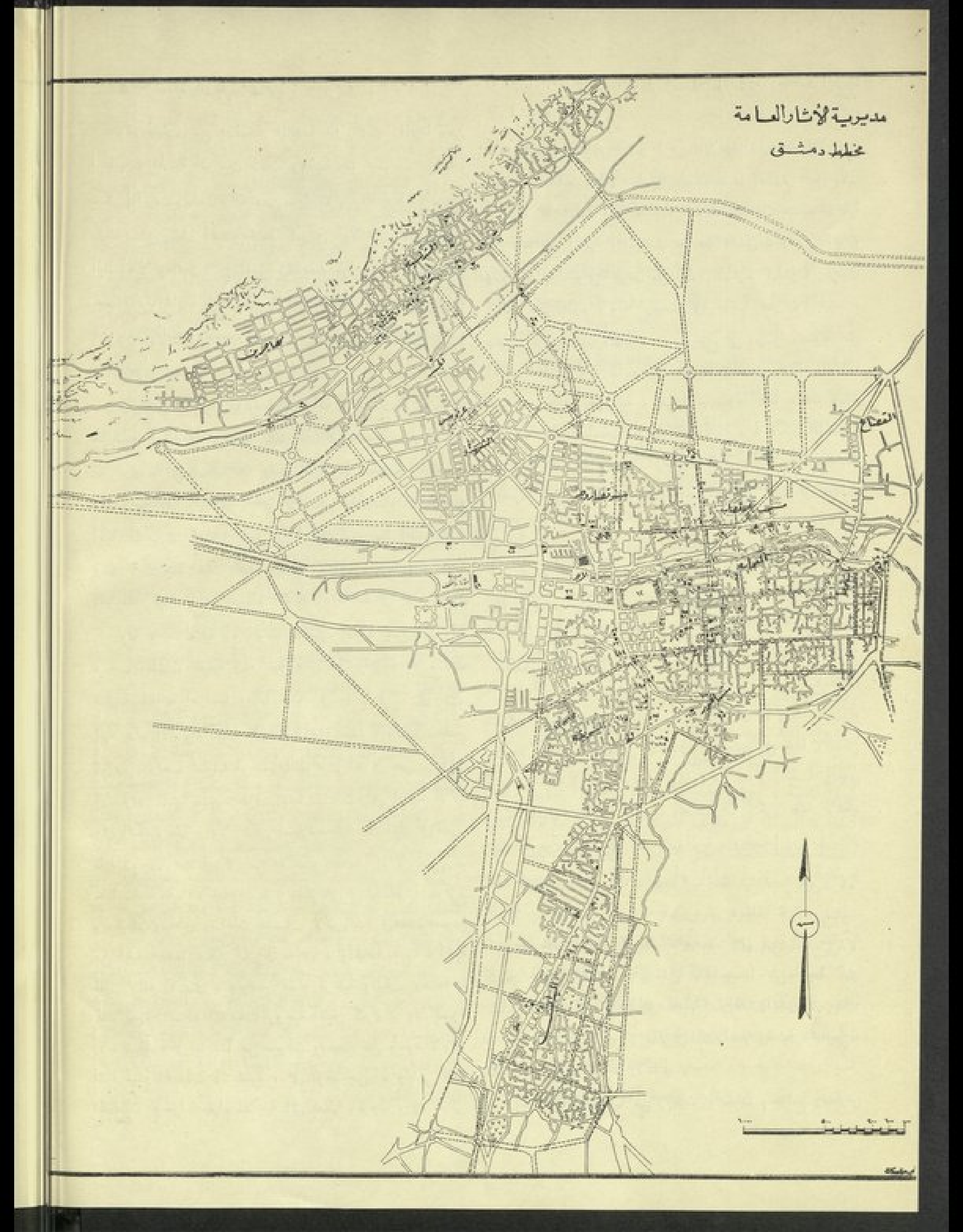
ومما لا شك فيه أنه توجد عناصر كثيرة ليس لها أية قيمة ، ومنشآت طفيلية وغير صحيّة في الأحياء القديمة . لأن للمدينة القديمة أمراضها وعللها شأن كل جسم حي . على أن إلغاء هذه الأسواء يحتاج الى عناية دقيقة جداً ، وتقدير صحيح للعناصر الواجب تعديلها أو حذفها ، بحيث أنه لا يجب مسها إلا بالاحتراس الذي تقتضيه طرق النقد المستخدمة في إصلاح الآثار وفي التنقيب عنها . ولا يمكن بصورة مبدئية أن نقول على الفور ماذا يتوجب عمله في كل من الأحياء القديمة . إذ لا يمكن أن نخط لمعالجة هذه الأحياء بالمسطرة والفرجار على المخطط ، شوارع وتخطيطات وميادين وساحات جديدة . لأن البدء في هدم مجموعة من أبنية أحدها يمكن أن يظهر خلايا ، وأنقاضاً ، وآثاراً فنية تغني تراثنا الأثري ، وتوضح قضايا تاريخية وفنية . وهذا ما يمنح حياة البلاد الثقافية والروحية أهمية كبرى . ولا تعوزنا الأمثلة الدالة على ما نشأ من صعوبات وأخطاء عن وجود الأوابد أثناء تهيئة المخططات التنظيمية ، على الرغم من أن واضعي هذه المخططات توخوا احترام الأبنية التي يحميها القانون . ولا نذكر الا مثل جامع تنكز الذي لم يبق منه إلا بابه ومئذنته البارزة على الشارع .

ونلاحظ بسرور كبير أن الأحياء الجديدة في دمشق اكتسبت طابعاً وجمالاً خاصين ، وأن هذا الطابع جعل يظهر بجلاء ، كلما شيدت أبنية جديدة ، وكلما استفادت هذه الأبنية من التجارب الماضية وانسجمت مع جو دمشق ، ومع عاداتها ، ومع اقليمها . وعلى الرغم من أن الشوارع الجديدة عرضت أكثر من اللازم ، وانه رصفت على جانبيها عمارات جامدة ، بسبب أن تراكيبها الظاهرة تنم بوضوح على انها مصنوعة من الاسمنت المسلح وأن لها صفات الادعاء والتزين الزائد الناشئة عن جمع عناصر زخرفية لم يفهمها مهندسوها تماماً ، فان هذه العمارات سوف تنسجم مع مجموع المدينة ، لما تكبر الأشجار المزروعة في الحدائق وعلى أرصفة الطرق ، ولما تملء بكتلها الخضراء الفراغات الكبيرة ، وتخفف شيئاً من حدة نور دمشق الساطع .

غير أننا لا يمكننا أن نخفي حيرتنا أمام النتائج التي نشأت عن تنفيذ المخطط التنظيمي الجديد ، وعن تقسيم الأراضي وتوزيعها ، في المنطقة الممتدة بين طرف القلعة الجنوبي ، وبين الشارع المستقيم . اذ أنه حل محل الأسواق والطرقات المتعرجة القديمة التي كانت تعترضها النتوءات ، محاضر صغيرة منظمة على شاكلة رقعة الشطرنج . ونتج من ذلك أن الأوابد ضاعت ، بين الأبنية ذات الطوابق المتعددة . وسحقت على هذا الشكل قباب ومئذنة (جامع درويش باشا) من جوار البناء الشمي المرتفع الذي شيد على جانبه . ويمكننا أن نكرر هذا الانتقاد تلقاء ما جرى في جوار عدة ترب أثرية ، وخاصة إزاء (بيمارستان نور الدين) الذي يعد من أهم أوابد دمشق ، وأكثرها طرافة .

ولا يجب تشجيع النزعة الداعية — وهي نزعة إلى مساوئها تتطلب أموالاً باهظة — إلى نقل آبدة بعيداً عن المحيط الذي نشأت به ، وذلك عن طريق هدمها ، وإعادة إنشائها على مسافة ما من مكانها الأول ، كما فكر في ذلك واضعو المخطط التنظيمي ، لتخلية ما حول المسجد الأموي .

إن الأسواق بما فيها من رباطات وحمامات وجوامع ومدارس


مديرية الآثار العامة
مخطط دمشق

تؤلف في غالب الأحيان جسماً متماسكاً ومنسجماً في عمارته وفي وظيفته . ويجب المحافظة عليه بمجموعه ، لا بعدد من أجزائه . كما يتوجب إكمال الطريقة المستعملة حالياً في تسجيل الأبنية ، بأن تؤخذ بعين الاعتبار المجموعات المعمارية ، وألا يكتفى بحماية بعض الأبنية المنفردة . ومن اللازم أن يفهم بوضوح أن الغاية من ذلك ليست إيقاف كل محاولة تستهدف تحسين حي ، أو تطويره . وانما يراد فقط بيان حاجة هذه المجموعات المعمارية إلى قواعد وإلى طرق وأساليب تختلف عن المبادىء السائدة في مكاتب المحافظة الفنية ، حيث لا ينظر غالباً إلا إلى مصالح الناس الفردية ، وإلا إلى المنافع المباشرة . فكان من اللازم مثلاً أن يمنع قيام بيت حديث ، جانب الواجهة الجنوبية للمدرسة الظاهرية (المكتبة الوطنية حالياً) . إذ أن هذا البيت الحديث له لون وأشكال مبتذلة وجائرة . كما أنه يمكننا أن نسرد مثلاً ثانياً . وهو أنه كان بالامكان عدم السماح بناء عمارات حديثة في شارع السلطاني القريب من خان الجمرك . وذلك لأن الأبنية الجديدة في الأحياء القديمة يجب أن تدرس دراسة دقيقة جداً ، تشمل ألوانها ومناظرها ، وتتوخى تحسين وضعها الحاضر ، وإظهار الأوابد التي هي عناصر الجمال في مجموع المدينة ، وعنواناً لمفاخرها . إن معيار الفائدة المادية العاجلة لا يمكن أن يطبق تماماً على منتجات الثقافة والفكر . ولهذا فاننا ننصح المهندسين العمرانيين الدمشقيين ألا يبحثوا تلقاء ما يبذل من أموال في إقامة ميادين على شكل النجمة ، أو في شق طرقات واسعة ، في الأحياء القديمة ، كيفية استثمار أراضي هذه الأحياء ، التي لا يعطي ريع بيوتها الحالية إلا قليلاً من المال ، أو كيفية الاستفادة من الحمامات أو المدارس أو الحدائق التي لا تساوي وارداتها شيئاً .

إننا نرى أيضاً في تنظيم القلعة أهمية كبرى يمكن أن تكتسبها نواة المدينة القديمة من الناحيتين البديهية والعملية . ويلاحظ أن جمال هذه العمارة ظاهر هنا بجلاء . ويكفي لذلك أن نفكر بحجوم واجهاتها العظيمة وبأبراجها ، وبجمال بابها المفترض في مدخلها الشرقي . ولا يخفى أنها تستخدم ثكنة وسجناً في يومنا هذا ، ويجب إذا أريد أن يستفاد منها ، أن تدخل فراغاتها الداخلية في حياة المدينة ، وذلك عن طريق إيجاد حديقة عامة فيها ، وأن يوصل بين هذه الحديقة وبين شوارع المدينة . كما يمكن لمهندس مبتكر أن يوفق بين عماراتها الضخمة وبين حاجات دائرة حكومية . ومن الجائز مثلاً أن تنشأ فيها مدينة جامعية وأن يجعل في أحد أقسامها بيت للطلبة يحوي مساكن للاساتذة والطلاب الغرباء عن دمشق ، ومكتبة ، وقاعات للقراءة والمحاضرات والمعارض . ويجب إعادة إقامة الصلاة في جامعها ، وتخصيص بعض اجزائها للتسلية الجامعية عن طريق إيجاد سينما ومقهى ومطعم الخ . . فيها . ثم أن عزل واجهتها الغربية عن الأبنية الطفيلية التي تحيط بها يمنح شارع النصر الواسع ، منظوراً رائعاً . والخلاصة إن القلعة إذا أصلحت كما ذكرنا ، لاصبحت بدلاً من أن تكون حاملاً كما هي الآن دون تطور المدينة ، نافعة للحياة العامة ، في شكلها الجديد ، ولاغنت تراث المدينة والدولة الاجتماعي .

ثم إن الجامع الأموي هو أهم أوابد مدينة دمشق . غير أنه يبدو اليوم مزيجاً من عناصر فنية وبنائية ذات قيم متباينة ، بسبب ما أصابه من كوارث ، وزلازل ، وحرائق . ومن المستحسن أن يتابع ويوسع برنامج إصلاحه وإعادة قيمه إليه ، الذي تسهر على تحقيقه مديريتا الأوقاف والآثار العامتان . وذلك بواسطة تغذيته بموارد مالية مناسبة ، لكي يمنح هذا المسجد مظهراً حسن لائقاً بأهميته الفنية ، والتاريخية ، ودوره كمركز ديني كبير لعاصمة سورية .

وتظهر اليوم عناصره القديمة (الفسيفساء ، والأعمدة ، والزخارف الجصية ، والمحراب ، والقبة الخ . .) كأنها منفصلة عنه وكأنها ميتة . حتى يظن أنها لا تمت بصلة إلى المسجد ، وأنها تثقله ، وتحمله كثيراً من الأعباء . لهذا فان إصلاحه يجب أن يتوخى تحسين هذا التراث الفني والتاريخي ، وأن تسبقه دراسة نقدية غايتها ، تقدير قيمة كل عنصر من عناصره تقديراً صحيحاً ، وأن يقوم هذا الاصلاح على أعمال ، غايتها ، جعل هذه المجموعة كلاً عضوياً ، وإرجاع وحدتها وانسجامها إليها . ولا ريب أن ذلك معقد وصعب ، ويحتاج إلى تعاون عدد من الفنانين والعلماء . غير أنه إذا نفذ بعناية لازمة ، لأمكن أن يعاد إلى دمشق روعة أكبر بناء فيها .

ويمكننا أن نشير حسب انطباعاتنا الأولى ، إلى العناصر التي يجب أخذها بعين الاعتبار ، في برنامج يقصد منه تحسين

هـذا الجامع وإصلاحه . ولا يخفى أن الأقسام التي لها أهمية تاريخية كبيرة فيه ، هي العناصر المنحدرة من العصور القديمة كالأعمدة ، والتيجان ، والأطناف ، والكتابات ، وبعض أجزاء الجدران والأقواس الخ . وذلك لأنها ذكريات مدنية زالت ، فيجب المحافظة عليها لقيمتها الايضاحية والثقافية . كما أن لها قيمة زخرفية لتبديها على أشكال أطلال وبقايا محطمة . ولا يمكن البتة ، أن يبرر أي رأي يستهدف إصلاحها عن طريق إكمال ما ينقصها .

كما إن الأقسام المنحدرة من البناء الأموي الأول (الأقواس والتيجان والفسيفساء) تقدم هي الأخرى أهمية تاريخية وأثرية من الدرجة الأولى . ويضع إصلاح هـذه العناصر على بساط البحث ، قضية صعبة ، لأنها أجزاء من الجسم الحي للبناء الحالي ، ولا يخفى أن قيمتها البديعية عظيمة جداً .

ويبين داخل الحرم ، في القسم المتوسط من البهو المستعرض ، تعاقب العصور التي مرت على الجامع ، والاصلاحات التي طرأت عليه . غير أن هذا المكان لا يؤلف أهمية ما . ويخيل للزائر أنه عبارة عن حاجز يفصل بين جناحي الابهاء . وتبدو آثار الفسيفساء على جداره الشمالي متسخة ، وفاقدة قيمتها ومؤلفة لطخات كامدة ، على أساس الجدار الأبيض . وتصحب النوافذ القديمة القليلة ، نوافذ حديثة كثيرة ذات رسوم مبتذلة ، وزجاج ذي ألوان صارخة . كما أن الألواح المرمرية على دعائمه الأربع المركزية الضخمة ، ليست على شيء من الأهمية . وكذلك فإن للجدار الجنوبي نفس العلل البديعية . وهو لا يملك وحـدة أو انسجاماً ما ، مع أن محرابه قد تزلت فيه أحجار الزخارف المرمرية ، وزين بالآيات القرآنية القاشانية . وعلى الرغم من أن النوافذ الثلاث الداخلية ذات رسوم دقيقة ، ومن أن السقف مذهب ، فإن كل هذه الأشياء لا تتفق مع غيرها من العناصر .

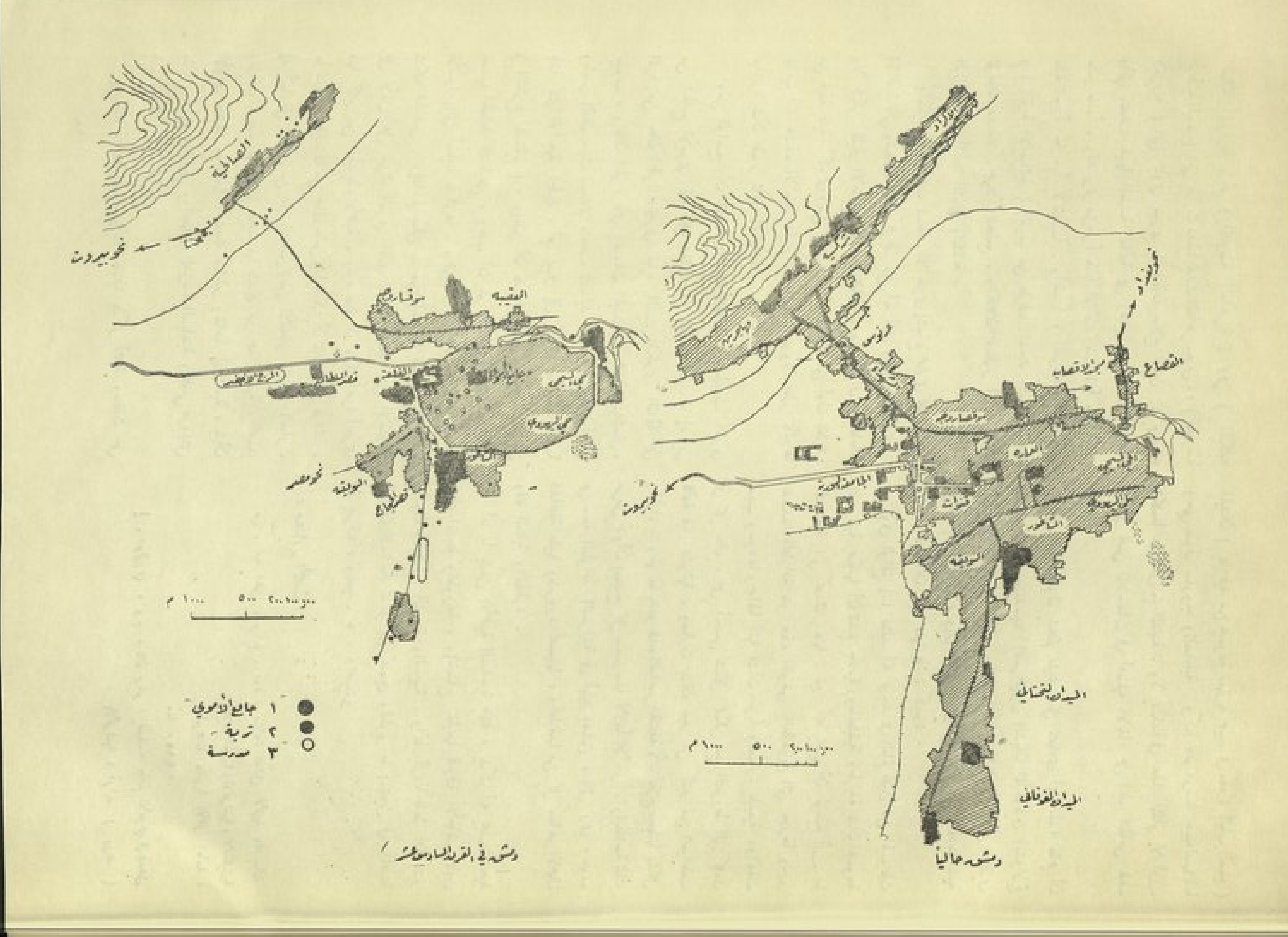
ويخيل إلينا أنه من المناسب أن يلغى ابيضاض الجدران في هذا الجزء (من البهو المستعرض) من الجامع ، ومن الأقواس ومن رقبة القبة ، لكي يظهر تركيب الأحجار الأصلية ، كما يبدو ذلك في بعض الجهات . ثم يجب استبدال النوافذ الملونة ، وتغيير لون عوارض السقف الخشبية ، وإيجاد شكل لانارة المسجد يلغى الشكل الحالي . ولا تخلو البلاد السورية من فنانين أكفاء قادرين على القيام بأعمال ذات قيمة . وإصلاح الجامع يقدم لهم أعمالاً طويلة الأمد ، ويسمح باستدامة التقاليد الفنية التي تعاني ضيقاً في سورية خلال العصر الحاضر من جراء انتشار الآلة ومزاحمتها .

ويمكن إعادة ما قلنا عن حرم المسجد لدى البحث في صحنه ومدخله الغربي وأبوابه . إذ يلاحظ أنه توجد إلى جانب آثار لها قيمة كبرى ، كمشاهد الفسيفساء ، وتيجان الأعمدة ، وقبة الخزنة ، والمآذن ، والأبواب ، عناصر أخرى ليست لها أهمية ولا معنى ، كالأبواب الزجاجية والسقوف الجديدة ، والألواح المرمرية الجانبية ذات الأسلوب الكلاسيكي الحديث ، وبعض أقسام أرض الأروقة المبلطة ببلاطات من الاسمنت الملح .

ويلاحظ أيضاً في المدخل الغربي أنه توجد (بقع) واسعة بيضاء إلى جانب ألواح الفسيفساء الثمينة . وتدل هذه البقع على عدم صلاح عملية الترميم التي أجريت في هـذا القسم . وعلى العكس يمكن الاشارة الى الأعمال التي نفذتها مديرية الآثار العامة بكثير من العناية في القسم الشمالي الشرقي من أروقة الصحن حيث طليت الأقسام المتعرية مما كان عليها من فسيفساء ، بلون قريب من لون هذه الفسيفساء ، ولا شك أن ذلك حل جيد ، على الرغم من أن السطوح الملونة تبدو عتمة إزاء سطوح الفسيفساء المتألقة ، وربما أمكن إحراز نتيجة أفضل ، إذا مزج اللون المستعمل ببعض مسحوق المرمر الذي يمكنه أن يضفي عليه شيئاً من اللمعان .

ومن الواجب أن توسع أعمال الاصلاح حتى تشمل كل أجزاء المسجد . وقـد ذهبت المكاتب الفنية في المحافظة إلى التصميم على عزله عما حوله بإيجاد شوارع واسعة في كل أطرافه الخارجية . ويجدر للحكم على قيمة هذا المشروع ، ألا نبعد عن ذهننا ، أن المسجد لم يبن لكي يكون عمارة معزولة عن غيرها من الأبنية ، وأنه يلقي إشعاعاً تاريخياً ، ووظائفياً على جو ما حوله ، وعلى فن العمارات الخارجة عنه ، كالأطلال الضخمة العائدة للمعبد القديم والكنيسة القديمة ، وعلى الترب والمدارس والخانات والأسواق المجاورة .

فيوجد مثلاً في جهته الشمالية خمس أوابد لها أهمية كبرى وهي : (المدرسة العادلية أي المجمع العلمي العربي حالياً) التي ذكرنا ان لها مدخلاً جميلاً فيه مفتاح معلق ، وأنها أثر رائع للعمارة



الصالحية
نحو بيروت
العقيبة
ساروجة
الميدان التحتاني
الميدان الفوقاني
القصاع
نحو بغداد
١ جامع الأموي
٢ تربة
٣ مدرسة
دمشق في القرن السادس عشر
دمشق حاليا

الصلبة المتوازنة ، ثم (المدرسة الظاهرية) ، وهي (المكتبة الوطنية اليوم) التي صارت مدفناً للملك الظاهر بيبرس ، و (المدرسة العزيزية) التي تأوي ضريح السلطان صلاح الدين الأيوبي ، والتي تتصف بقبتها المضلعة القائمة على رقبتين ، لها ثمانية وستة عشر ضلعاً . وقد رمم مؤخراً هذا الأثر ترميماً فنياً مثلياً أضفى عليه جواً خارجياً لائقـــاً . وأخيراً (المدرسة الجقمقية) و (التربة الاخنائية) بالقرب من طرف المسجد الشمالي ، وهما تؤلفان مدخلاً جميلاً للجامع ، وتكملان منظور الأعمـــدة البيزنطية ، والباب الشمالي والمئذنة .

ولكل من واجهات المسجد الأخرى إشعاع عماري يحوي نفس الأهمية التي وصفناها ، على الرغم من أنه أقل وضوحاً وظهوراً . ولا تمكن قليلو الاطلاع على ما للخانات والأسواق والحمامات من قيمة فنية كبرى ، من تقدير هـذه القيمة من أول نظرة ، بسبب أن هـذه الأبنية ما تزال مستعملة . ولا يظهر تأثيرها مباشرة شأن ظهور تأثير الأطلال .

ومن الواضح أن مجموعة الأبنية القائمة في الجنوب الغربي من الجامع الأموي لها كل صفات فن العمارة الجيد . إذ يمر المرء من خان الجمرك ، ويرى قبابه الست الكبرى القائمة على جبوب ، وبخان الحرير ذي القبيبات المجتمعة في ثلاث سلاسل ، وبقصر العظم حيث سينظم متحف للتقاليد الشعبية ، وبخان أسعد باشا ذي الواجهة الجميلة ، ثم يصل إلى سوق مدحت باشـا (الشارع المستقيم) . ويظهر أن هـذا الشارع سوف يعرض حسب المخطط التنظيمي . ويجب أن يتم ذلك بحذر شديد لتفادي الأسواء التي أسلفنا ذكرها . ونتمنى لو أبقي هـذا الشارع على شكله الحاضر . وإذا لم يكن بد من إصلاحه فيجدر الابقـاء على الأقل على جزئه الغربي الذي يحيط به عدد من الأسواق فيها كثير من الحيوية والأهمية . ونود هنا أن نذكر مرة أخرى ما للأسواق القديمة من جمال خاص وما يمكن أن تقدمه من فوائد ، إذ أنها تقي المارين من حر الشمس ومن الأمطار والرياح والغبار . وتؤلف هـذه الأسواق بمجموعها شبكة مزدحمة طبيعية ، تجـد الأوابد خلالها مواضعها ، محدثة مناظير ونقاطاً إيضاحية ، شأن مئذنتي هشام والقلعي وواجهات المدرسة السباهية وجامعي درويش باشا وسنان باشا وقبابها .

ويمكننا متابعة شرح رأينا هـذا بذكر أهمية وصفات حي الميدان (بما فيه من مجموعة معمارية جميلة في مقبرة الباب الصغير) وحي سوق ساروجا والصالحية . وكنا قد درسنا خصائصها لما تكلمنا عن تاريخ المدينة . ولا يمكننا في هذا المقام إلا أن نكرر نفس الملاحظات في أفضلية الابقاء على الجو الخاص لهذه الأحياء .

وخلاصة القول يتحتم علينا لكي نتفادى أي سوء تفاهم أن نسترعي انتباه مهندسينا العمرانيين الشبان المأخوذين بالشوارع العريضة المستقيمة ، إلى صفة الطرافة والطابع الخاص اللذين تولينا الدفاع عنها ، وإلى الأهمية السياحية التي يمكن لمدينة غنية بالآثار الفنية أن تفيد منها فائدة كبيرة .

وفي الواقع إننا نعتقد أنه يوجد في العالم قليل من المجموعات العمرانية يمكنها أن تقدم جاذبية رومانطيقية وطريفة شأن المجموعة الدمشقية التي تحدثنا عنها . غير أنه يجب أن نوضح أن ما نقصده بالطرافة هو هذه الفوضى الظاهرية التي يبررها ويبرر سبب وجودها وجمالها أنها نشأت عفوياً وبصورة طبيعية ، واتفقت في كل حال ، على أحسن شكل ممكن مع الشروط التي كانت قائمة قبل نشوئها . وصارت بذلك تعبر عن كثير من العواطف والحياة . وهو ما يدعو هذه العناصر المختلفة لأن تمتزج ببعضها بشكل مرض ، وأن يصبح كل عنصر منها لازماً للآخر . والخلاصة تلك هي صفة الطرافة العمرانية في أبنية دمشق ، التي نرى وجوب المحافظة عليها وضرورة تحسينها ، وتخليصها من كل مظاهر الاهمال وقلة العناية والقذارة .

أما ما يتعلق بالأهمية السياحية فاننا لم نذكر أنه يجب لضحية حياة المدينة وتطورها ، وإخضاع تنظيمها لذوق الأجانب الذين يهتمون بالأشياء الغريبة والعجيبة . وانما أردنا فقط أن نشير إلى أن السياحة تدعو إلى تحسين وتطوير ما يستحق في المدينة أن يعرف ، ويعجب به ، ويحب .

مصادر البحث :

س . عبد الحق . و غ . مماف : مشاهد دمشق الأثرية باللغـات الثلاث العربية والافرنسية والانكليزية
مطبوعات مديرية الآثار العامة ،
سنة ١٩٥٠ .

إ . دولوري ، و م . فان برشم : فسيفساء جامع الأموي في دمشق بالافرنسية ، أوابد (بيوت)

الجزء (٣٠) ، ص : ١١١
١٣٩ .
م . ايكوشار و ك . لوكور : حمامات دمشق ، جزءان بالافرنسية
المعهد الافرنسي بدمشق . بيروت
١٩٤٢ — ١٩٤٣ .
ج . حداد : دمشق وسورية الجوية ، دمشق سنة ١٩٥٢ .
ر . هارتمان ، الموسوعة الاسلامية . مادة : دمشق ، ليدوباريس
سنة ١٩١٣ . ص ٩٢٦ — ٩٣٤ .
أ . هرتسفلد : دمشق ، دراسات في فن البناء ، بالانكليزية ، أربع
مقالات في مجلة (آرس إسلاميكا) ، الأجزاء
الصادرة في سنوات ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ ،
١٩٤٦ و ١٩٤٨ .
الأوابد الأيوبية في دمشق ، أربعة أجزاء بالافرنسية ، المعهد الافرنسي
بدمشق ، باريس ١٩٣٨ — ١٩٥٠ .
ج . سوفاجيه : الأبنية التاريخية في دمشق ، بالافرنسية ، بيروت ،
سنة ١٩٣٢ .
ج . سوفاجيه : تاريخ عام لمدينة دمشق ، بالافرنسية ، مجلة الدراسات
الاسلامية ١٩٣٤ ، ص : ٤٢١ — ٤٨٠ .
: مخطط دمشق القديم ، بالافرنسية ، مجلة سيريا
المجلد (٢٦) ، ١٩٤٩ ، ص : ٣١٤ — ٣٥٨
ك . وتزنجر وك . ولزنجر : دمشق (العصر القديم ، والعصر الاسلامي) بالألمانية
جزءان . ليبزيغ وبرلين ، سنة ١٩٢١ — ١٩٢٤

حلب

صفات فن بناء المدينة :

رمز مدينة حلب هو قلعتها التي تتوج ، كأنها ، (تلتلة) طبيعية ، هضبة متألفة من أطلال تجمعت فوق بعضها منذ أقدم المدنيات . وتختص هذه القلعة بخندقها العميق ، ومنحدراتها العالية الضخمة المثبتة على الأرض الطبيعية بجذوع من الأعمدة . وقد تمكنت المدينة بواسطتها خلال تاريخها الطويل من أن تقاوم الأحداث التي زرعت حولها الخراب والموت . وتحت أقدام هذه القلعة تجمدت على أشكال فن بناء منطقي مزدهر شبكة الطرق المتجمعة من أطراف الصحراء والبحر .

وفي الواقع تتصف مدينة حلب دوماً بكونها مفتاح الطرق والمبادلات . وقد أدت الحروب إلى إيقاف نموها عدة مرات . إلا أن هذا النمو يتصف بمنطق خاص ووحدة قوية، وانسجام شديد، على الرغم من التغيرات التي أحدثتها الشروط السياسية في المدينة . ولم تنفك حلب خلال العهود السلوقية والرومانية والبيزنطية عن توسيع علاقاتها ونشر شهرتها ، فأصبحت آنئذ الحاضرة الحقيقية لسورية الشمالية . وعلى حين أن انطاكية احتفظت بأسبقية ثقافية فانها غدت مدينة التجارة والصناعة والعمل .

أما في فن البناء فانها تأتي في طليعة المدن السورية ، وتحافظ على هذه الميزة ، دون اسفاف وانحطاط . لأنها عرفت كيف تمزج المنطق العقلي الهندسي للمنشآت اليونانية بمفاهيم روما الضخمة ، وبالظرف المرن الزخرفي لبلاد الرافدين الشرقية . وهي على عكس بلاد الرافدين الفقيرة في مواد البناء ، وذات الأبنية والمنشآت من الطوب والفخار ، فانها تستخدم الأحجار الكلسية بغزارة وبشغف زائد لتجعل ، منها أشكالاً ومواضيع متفقة مع مقتضيات فن البناء . كما أنها تستثمر في تركيب أبنيتها ، طبيعة وصفات هذه الأحجار التي تساهم بمفهوم الأعمال الفنية ، كما تعمل دمشق بمياهها التي تبعث الحياة في الفراغات البنائية مع انسياب العيون والبحرات والفوارات .

ومن الصعب على المرء أن يصف خلال بحث موجز آثار حلب ، وأن يقيم بينها تصنيفاً مبنياً على خواص أبنيتها وأساليب هذه الأبنية . ولا يخفى أن ج . سوفاجيه قام بدراسة عميقة حولها ، ووصفها في بحثه عن نمو المدينة التاريخي ، كما أحصاها في قائمة طويلة . إلا أن ذلك لا يمكنه أن يستوفي كل ما يجب قوله في مدينة ، لآثارها الفنية وأبنيتها الأثرية وظيفة حية ، وصفات خاصة يمكن أن تنكشف على أثر كل دراسة جديدة ، ولدى كل محاولة لتوسيع مدني أو ترميم .

ويلاحظ أن عدداً كبيراً من الأبنية القديمة في حلب قد حولت عن الغايات التي أنشئت من أجلها ، وأنه قد استخدمت في عدد من الأبنية الأخرى مواد بنائية وعناصر زخرفية كانت في أبنية أقدم منها . ومن ذلك أن المسجد الكبير الذي يرجع بناؤه بشكله الحاضر إلى زمن المماليك ، يحوي في تركيبه على عدة عناصر أقدم من هذا الزمن ، كما أن مئذنته الجميلة الشاهقة التي تعود إلى سنة (١٠٩٠) تعد بشكلها وزخارفها من الأوابد الرئيسية لدراسة فن البناء الاسلامي في سورية . وفي بناء الشيخ

يحسن تستند القباب ،مغربية على التيجان القديمة . وكذلك فان أقدم مدرسة في حلب وهي مدرسة الحلاوية كانت كنيسة قديمة ، وأن الكاتدرائية القديمة استحالت إلى مدرسة إسلامية ، وأن جامع التوتة متزين بطنف قديم . ثم إن القلعة تستند على منشآت بيزنطية ، وتستخدم بعض قاعاتها وصهريجها العظيم . كما أن سور المدينة الحصين يرقى عهده إلى عدة عصور كما يستبان ذلك من حجوم مداميكه وطريقة نحتها . ويعود زمن السفلية الضخمة منها إلى العهد اليوناني – الروماني ، أما الأبراج الرائعة فانها كلها من زمن المماليك .

ويلاحظ أن فن البناء وأشكال هـذا الفن ، وطرقه ، وروحه ، ظلت ، كما ظلت المواد نفسها لدى ابتكار مواضيع جديدة ، باتصال مع الشرائط السياسية والدينية أو المبادلات التجارية . وعلى حين أن القلعة والسور والمدارس ودور الدراويش تمثل لنا حلب كثغر على حدود البلاد الاسلامية في صراع مع الصليبيين ، ومع الشيعيين ، فان اتساع أرجائها المدنية وأسواقها يشهدان على أهميتها التجارية التي نشأت عقب تدمير انطاكية ، كما يشهدان على أنها ورثت عن هذه المدينة دورها كمركز التجارة التقليدي مع بلاد فارس والهند .

وقد ازدهرت حلب خاصة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر . وتدلنا على ذلك بيوتها الخاصة الجميلة وخاناتها العظيمة التي تؤلف مع أسواقها وبحراتها وجوامعها مجموعة بنائية قوية . ويبدو الذوق في التزيينات (الباروكية) الذي انتقل إليها من ايطاليا وفرانسا واسبانيا ، على إطارات أبواب هذه البيوت ونوافذهـا وزخارف سقوفهـا ، كما تجمع المواضيع التي استعارتها من القسطنطينية خاصة في أبنية الجوامع ، ومدارس العدلية والخسروية والعثمانية والأحمدية ، وفي المآذن العالية المخروطية .

وخلاصة القول إن مجموعة الأوابد الحلبية تسمح لنا ، بما لها من انسجام واتصال دون انقطاع ، أن نتابع تطور المدينة الفني ، وذوقها ، وأفكارها ، الدينية وتاريخها ، وتنظيمها التجاري . وهي تؤلف مع أوابد القاهرة القاعدة الأساسية لكل دراسة جامعة عن فن العمارة الاسلامية .

تحسين هذه الأوابد وتجميلها :

ويحملنا تعدد القضايا التي تثيرها المحافظة على الأوابد بما في ذلك من ترك الغاية التي أنشئت من أجلها ، وترميمها ، ووظيفتها العملية والاقتصادية ، ومقتضيات العمران ، والحياة الحاضرة ، نفكر أنه من الضروري تأليف لجنة من الخبراء في مدينة حلب ، تكون مهمتها أن تسدي النصح إلى السلطات العامة . ويجب أن تضم هذه اللجنة بعض العلماء والفنانين ، وممثلي المصالح الفنية الخاصة ، وأن تدرس الوسائل اللازمة لجعل التراث الفني يساهم في حياة المدينة المعاصرة ، وأن توضح صفات هـذا التراث ، وأن تظهر بجلاء ما فيه من جمال .

ولا يخفى أنه يوجد في حلب عدد من الأوابد التي أضاعت وظيفتها الحية ، وجعلت تدخل في مضمار الأشياء الأثرية . وتؤلف هذه الأوابد في غالب الأحيان عبئاً ثقيلاً بسبب ما تتطلبه من أعمال الصيانة والترميم ، دون أن يحصل منها أصحابها على أي دخل . ومهما يكن فيجب إنقاذها ، والمحافظة عليها بسبب ما يتمثل فيها من قيم ثقافية ووطنية ومعنوية . ولا يمكن أن ينظر إليها كأنها أشياء ضاعت الفائدة منها ، وأنه يجب أن تترك إلى الفقراء الذين لا يمكنهم أن يدفعوا اجرة سكن حديث ، أو أن تجعل مركزاً لصناعة لا تثمر إلا قليلاً . وإذا فعلنا ذلك ، فاننا نكون قد تخلينا بسهولة عن إمكانية تخليد وجودنا في تاريخ مدينتنا ووطننا .

ولا شك أن الادارات الرسمية لا تأخذ بعين الاعتبار هـذه المقتضيات ، وترى تحت ضغط الموازنات السنوية ، أن تراث المدينة الفني غني جداً ، وأن صيانته والمحافظة عليه متعذرتان ، وتكلفان غالياً . إلا أن الآبدة كالشجرة التي تمثل قيمة ايجابية ، حتى ولو أنها غير مثمرة ولا تتجلى فيها منفعة آنية واضحة . ولا نرى أنها عنصر من عناصر الجمال ، وأنها كانت تساهم في حياة الوسط الذي هي فيه ، إلا إذا قطعت وحولت إلى حطب الوقود . وهكذا شأن الآبدة التي عندما تنزع لا يبقى منها إلا أحجارها وإلا محلها الذي يمكن أن ينشأ فيه بناء آخر .

ولا شك أن الادارات العامة في هـذا العصر ، في أية مدينة تجتاز طوراً من أطوار نموها ، تجهد كل الجهد لتضفي عناصر جمال جديدة عليها . ونحن نرى أنه يمكن تأمين ذلك ، إذا التفتت هذه الادارات إلى الامكانيات المتوفرة في الأبنية القديمة . ولا يمكننا إلا أن نكرر في هذا المقام ، ما ذكرناه لدى حديثنا

عن دمشق ، فيما يتعلق بجمال الأحياء القديمة ، والطرقات الضيقة الهادئة ، وبقيمة الأسواق والخانات العملية والفنية ، وبقيمة « الطريف » في الجو المدني ، وضرورة الاحتفاظ بصفات ووحدة وجميع عناصر هذه المجموعة التي أنشأتها العصور المتعاقبة .

وتقدم حلب خاصة إمكانيات عظيمة لتجميل متتابع ، لأن كل تاريخها مسجل في أبنيتها القديمة الفخمة . ويكفي أن نخلص هذه الأبنية القديمة من المنشآت الطفيلية والهزيلة التي تضايقها والتي نشأت على جدرانها ، أو في الفراغات المحيطة بها ، في أزمنة كانت السلطات العامة خلالها مهملة شأنها . ويمكن أن نحسن منها ، بشكل لائق ، الأوابد المهملة المهجورة ، أو التي يقطنها الفقراء مثل الشيخ محسن ، والبيمارستان النوري ، والمدرسة الظاهرية الواقعة خارج السور ، وبيمارستان أرغون المبني سنة ١٣٥٤ والذي يعد معجزة من معجزات فن البناء .

ويشاهد في مقبرة الصالحين ، التي كانت مركزاً دينياً قديماً جداً ، وحاوية على صخرة مقدسة تقيم التقاليد بينها وبين ابراهيم عليه السلام ، بعض العلاقات ، عدد من القبور التي ترقى إلى آخر القرن الثاني عشر . وما يزال بعض هذه القبور مستخدماً ، كما أن بعضها الآخر مهجور ، ومطمور . وهي على أهمية كبرى لما لها من أشكال فنية رائعة ولما تحويه من كتابات جميلة . ويكفي أن نحيطها بجدار ، وأن نعزلها عما حولها ، وأن نغرس فيها بعض الأشجار . وبذلك تحول هذه المنطقة المخربة إلى حديقة أثرية جميلة .

ويمكننا أن نوجه هذه الملاحظات أيضاً في الكلام عن قبور مقبرة المقامات الواقعة شرقي مدرسة الكاملية خارج السور . وليس من الصعب فتح باب هذه المدرسة ، وتحسين منظرها .

ويجب تخليص بعض المجموعات الأثرية المهمة مما يحيط بها من أبنية طفيلية نشأت فيها مثل أبواب انطاكية والنصر والحديد الجميلة ، ومثل واجهات ومداخل وباحات خانات اوزدامور والصابون ، وقرديغ . ولو نظفت المنطقة المحيطة بالسور بين باب الجنان وباب قنسرين ، وهدمت فيها الدكاكين الفقيرة ، لأصبحت ميداناً من أجمل الميادين التي يمكن تصورها ، ولتسنى للرائين من هذا الميدان أن يعجبوا بجدارات وأبراج المماليك وواجهاتها .

ويجب أن تؤخذ البيوت الأثرية الخاصة الجميلة بعين الاعتبار أيضاً لدى اتباع برنامج لإصلاح الأبنية الأثرية في حلب والاستفادة منها . ومن هذه البيوت الأثرية منزل غزالة الذي حول في الوقت الحاضر إلى مدرسة ، والذي هو مهدد بالخراب . وهذه المدرسة من القرنين السابع عشر والثامن عشر . ونرى أنه يمكن الاستفادة منها كما يمكن الاستفادة من بعض الخانات ، وذلك عن طريق تحويلها إلى نواد أو فنادق تخصص للسائحين الأجانب . وبذلك يتهيأ لمدينة حلب أن تقدم إلى زوارها ، مضافات لائقة في حدود فنها المعماري الذي لا يجارى .

مخطط تجميل المدينة :

ولقد قدم المهندس الافرنسي أ . غوتون الأستاذ في معهد الهندسة المعمارية (الاوربانيسم) في باريس سنة ١٩٥١ ، على طلب بلدية حلب ، مخططاً لتوسيع المدينة وتنظيمها ، وأرفق هذا المخطط بتقرير عرض فيه الأسباب التي دعته لتصور عناصره .

ويجب أن ينظر إلى هذا المخطط ، كدراسة عامة تتفق في خطوطها الكبرى مع حاجات المدينة الجديدة ، ومع رغبات الادارة الحكومية . أما التقرير فانه دليل لتنظيم المدينة ، وفيه شرح الأهداف المنتقاة والأساليب التي يجب أن تتبع وتؤدي إلى تحقيق هذه الأهداف . ويمكن المرء أن يقرأ فيه أنه على الرغم من رغبة كاتبه الأولى في العمل على تأمين توسيع المدينة البشري والاجتماعي ، فانه يرى من اللازم أن تقدر : « القيمة التاريخية لكل حي من الأحياء ولكل بناء من الأبنية ، وأن يتخذ مشروع في المستقبل للابقاء على كل ذلك إبقاءاً تاماً ، أو لتنظيمه والاستفادة منه » . وقد أدرك هذا المهندس قيمة أسواق حلب التجارية ، فأوصى باحترام موقعها الذي حدده الزمن ، والذي ما زال في عصرنا الحاضر كما كان قديماً . وقال ما نصه : « يجب أن تتخذ الطرق المؤدية إلى الخانات التي تغذي الأسواق والتي هي عناصر طبيعية للتبادل بين التجار الكبار (بالجملة) والبائعين (بالمفرق)، على شكل يجعلها تستفيد من الطرقات الحالية المؤلفة منذ أزمان بعيدة والتي تنفذ بسهولة إلى داخل الجزرات العمرانية » .

ثم ينصح بتفريق الشوارع التي تمر عليها السيارات عن الشوارع التي يسلكها المارة ، وبتفادي إنشاء دكاكين على الشوارع الجديدة المخصصة لسير السيارات . ويحدد صفات كل منطقة من مناطق المدينة ـ منطقة السكن ، والمنطقة التجارية ،

والمنطقة الصناعية – بما يتفق مع حياة المدينة ، وطبيعة أرضها . ويذكر أن مكان الأبنية الحكومية والادارية عين في المخططات دون تحديد ، وذلك حتى تحجز المواقع المختارة للمصلحة العامة دون أن يكون المكان مخصصاً نهائياً لكل بناء من هذه الأبنية ».

وقد جعل المركز المدني حول قصر الحكومة (السرايا) دون أن يهمل توجيه عدد من التحفظات ، والتواصي التي من شأنها تنسيق الأبنية الجديدة في جو الأبنية الأثرية الموجودة كـ (حمام اللبابيدية ، والجوامع ذات القيم التاريخية والفنية العظيمة) . ونحن نحتفظ من هذه التواصي أنه يجب تفادي إيجاد أي بناء مرتفع حول القلعة . إذ أن الأبنية الجديدة تفسد جميع النسب الفنية البنائية الموجودة في هذا الجو ، كما يوضح ذلك مثل السرايا الجديدة التي اقترح هدمها عدة مرات . ونحن نعتقد أن الأبنية المراد إقامتها يمكنها أن تجد أمكنتها المناسبة بصورة منطقية وحرة في الفراغات الواقعة خلف هذه المنطقة . ومع ذلك فيمكن أن توضع بعض العناصر الجديدة ذات الارتفاعات المحدودة في الفراغ الواقع بين المسجدين . ولا ريب أن الغاية من هذه العملية أن تحل مسألة فنية قوامها أن إدخال أبنية جديدة ، في جو قديم يحسن تجميله لا هدمه . وهذا ما جعل مؤلف التقرير يقول : « من الواجب أن يساهم المخطط كله بإنقاذ آثار الماضي واحترامها ، وأن يحاول أن يقيم في الأحياء الجديدة منشآت ضخمة تتسم بطابع فننا المعاصر في البناء ، دون أن تستوحي من صفات أبنية الماضي . استفيدوا من المائتي مسجد ومن الاثني عشر كيلو متراً من الأسواق الموجودة في مدينتكم ، واحتفظوا بالشواهد المتناقية عن عظمتكم .... »

ونحن سعداء أن ننحاز إلى تواصي وتحفظات هذا التقرير المرفق بمخطط التنظيم الذي وافقت عليه بلدية حلب . ونرغب أن نلح على ضرورة إضافة خبراء مختصين إلى موظفي مصلحة تنظيم وعمران المدن أو الاستعانة باللجنة التي تحدثنا عنها سابقاً حتى يمكن تنفيذ ما أوصى التقرير بخطوطه العامة دون أن يلم بجميع تفاصيله .

والواقع إن التجارب التي أجريت حتى الآن كبناء السرايا الجديدة وفتح الشارع الذي أدى إلى تشويه مطبخ العجمي (« هو الشاهد الوحيد عن هذا الشكل من البناء الذي يوجد في الشرق الاسلامي » ، كما ذكر ذلك ج . سوفاجة) وتقطيع أوصال خان الوزير (وهو مجموعة بنائية رائعة ، وأجمل خان في حلب) تنصحنا بالتأني ، وتجعلنا نعتقد بوجوب إجراء فحص دقيق لمختلف العناصر التي ساهمت في نشوء الأحياء القديمة ، قبل إجراء أي تحوير فيها . ونتمنى ألا يتابع تشويه خان الوزير في سبيل إرضاء المالكين الذين تضرروا من توسيع الطريق ، بمنحهم تعويضات على حساب باحة الخان كما أعلن ذلك . لأن من شأن هذه العملية أن تفسد التوازن البنائي الجميل في الخان وأن تخالف المبادىء التي ذكرناها سابقاً مخالفة صريحة .

والخلاصة إن وظيفة أي مخطط توسيعي متخذ تنص على منح المدينة بعض التوجيهات حتى تتسع هذه المدينة إتساعاً منسجماً يراعي جميع القيم التي تهم مجموع السكان . ومن العبث والضار أن ينفذ جزئياً لكي يخدم بعض المصالح الخاصة ، ولكي يحقق بعض الأرباح الوقتية .

مصادر مختصرة

ج . جولاد وروزو : قلعة حلب ١٩٢٢ .

ج . سوفاجة : قائمة الأبنية الاسلامية في مدينة حلب ، مجلة الدراسات الاسلامية . المجلد الخامس ، ١٩٣١ ، الصفحة ٥٩ – ١١٤

ج . = : حلب ، جوتنر . باريس ، ١٩٤١ (م . أ . ت ، الجزء الرابع والثلاثون) .

م . سوبرنهايم : الموسوعة الاسلامية ، مادة (حلب) ، ليد وباريس ١٩٢٧ ، ص : ٢٤١ – ٢٥٢ .

صبحي الصواف : « دليل الزائر » ، حلب ، ١٩٥١

الأطلال الكبرى في الصحراء

بادية الشام

إن بادية الشام ليست صحراوية بدرجة واحدة . لأن السهوب تمتد فيها على مسافات شاسعة ، فتسمح للحياة أن تنشأ فيها . وتهطل عليها الأمطار قليلاً ، خلال فصل الشتاء ، فتمد بمياهها بعض الينابيع ومجاري السيول ، وتخضر منها المراعي . ويتنقل سكانها البداة بين أرجائها باحثين عن الكلأ لمواشيهم ، ويعلقون بخيامهم فضاءها الأعزل . كما يحدث أحياناً أن حياة الاقامة والزراعة تحل محل حياة البداوة والظعن ، فيتجمع السكان حول بئر أو عين ، ونشأ عن ذلك قرية أو مدينة ، تنبت حولها أشجار النخيل ، وتزرع الحبوب في أراضيها .

ويستنتج مما تقدم أن الشروط يمكن أن تتوفر في هذه البادية لكي تستثمر بعض مناطقها إذا سمحت بذلك الظروف . وهذا ما حدث في بعض الفترات من التاريخ . إذ نظمت فيها أعمال الري التي ساعدت على إنبات المزروعات ، وحفرت الصهاريج التي هيأت نشوء المدن والقرى . وساهمت التجارة بإعاشة سكانها الذين لا تكفي حاصلات أراضيهم لتغذيتهم ، كما دفعت ضرورات الدفاع العسكرية إلى إنشاء الحصون والقلاع في أراضيهم ، واقتضى مد حاميتها بالمؤن والذخائر .

ونشأت خلال هذه الصحراء السورية الطرق الكبرى للمواصلات التي تمر على ـ محطات اضطرارية ـ مناطق تصلح للحياة بسبب منابعها الاقتصادية الطبيعية أو الاصطناعية . وقد دعت إلى نشوء هذه الطرق ، حاجة الاتصال بين الخليج الفارسي والبحر الأبيض المتوسط . ولا ريب أن وادي الفرات هو الطريق الطبيعية بينها ، وتنتهي هذه الطريق بحلب وإنطاكية . إلا أنها اختصرت بواسطة اختطاط طريق ثانية تعبر الصحراء ، وتمر على تدمر ، وتؤدي إما مباشرة إلى ممر حمص ، أو أنها تعرج جنوباً نحو الجنوب إلى دمشق وفلسطين . وقد ولدت على نقاط ابتداء وانتهاء هذه الطريق الصحراوية الثانية أو على مراحل منها في الواحات أو النقاط الستراتيجية كمرات نهر الفرات ، أو أمكنة اجتياز المضائق الجبلية ، مدن وقرى اجتمع فيها عدد من الشروط اللازمة للحياة البشرية . وكان من هذه المدن دورا أوربوس أو تدمر .

تدمر

يتمتع موقع تدمر بشهرة عظيمة يستحقها تماماً . وهو مدين بها أولاً إلى جماله الطبيعي . ففيه ينبوع ذو مياه كبريتية زرقاء شفافة ، وبساتين النخيل الخصيبة ، وتضاد رائع بين الصحراء الممتدة إلى مسافات شاسعة جنوباً ، وبين حاجز الجبال التي تحف به شمالاً . كما أنه مدين بها أيضاً إلى الذكريات التاريخية العظيمة التي علقت به . ولا يخفى أن تاريخه الاقتصادي والسياسي جعل من واحته الواقعة في قلب بادية الشام حاضرة من حواضر التجارة العالمية القديمة في الشرق . كما أن الملك أذينة والملكة زينب الزباء كانا سيدي الشرق وحليفي روما الكبيرين ، ثم منافسيها ومزاحميها على دورها الأمبراطوري العالمي . وأخيراً فانه مدين بها خاصة إلى روعة وعظمة الأطلال المبعثرة في رحابه .

وفي الواقع إن الأطلال التدمرية تروع الخيال بسعتها وبحالتها

القائمة الجيدة . إذ أنه تشاهد ، على أطراف المربعات التي يؤلفها تقاطع شوارعها القديمة ، صفوف الأعمدة المنتظمة ، وجدران المعابد ، والأروقة ، وأدراج الأبنية الرسمية . وتمتد حول المدينة حقول المقابر الواسعة بنماذجها المتعددة . فمنها القبور ـ المساكن ومنها القبور ـ الأقبية ، ومنها القبور ـ الأبراج ، التي على الرغم من أنها نهبت في الزمن القديم ما زالت محافظة على زخارفها وكتاباتها ، وعلى تماثيلها ، وصور الموتى الذين دفنوا فيها . ومن خصائص تدمر أنها تحوي مجموعات بنائية أثرية كبيرة جداً ، فالأعمدة الضخمة التي كان يرتكز عليها رواقا الشارع الكبير مازالت قائمة على مسافات طويلة من هذا الشارع . كما أن جذوع هذه الأعمدة ما فتئت تحمل القواعد التي كانت توضع عليها تماثيل عظماء التدمريين ، وتتوج بأطنافها وأفاريزها القديمة . وكذلك فان معبد (بل) ما انفك كما كان قديماً ، وتحيط به الأروقة ، والجدران الخارجية ، وإن الأبراج الجنازية ، حيث تقوم أشباح الموتى كأنها صفوف من الحرس على طرفي المضيق الجبلي الذي تجتازه طريق حمص ودمشق ، تمتد بأشكالها المكعبة الشاهقة على كشوح الهضاب . وأخيراً ما فتئ الحصن العربي يكلل ذروة الجبل بأبراجه وأسواره ، ويؤلف عنصراً هاماً من عناصر المناظر الأثرية التدمرية .

وقد تأكد المنقبون أن أقسام الأبنية المطمورة في التراب لم تتأثر إلا قليلاً من مرور الأزمنة ، وأنها ظلت محافظة ، محافظة تامة على أشكالها القديمة بسبب الرمال التي خبأتها في جوفها وبسبب الأقليم الذي حافظ عليها ووقاها من عناصر الفساد . وأحسن الأمثلة التي يمكن سردها على ذلك حالة التصاوير الجدارية الجيدة في داخل المقابر . ويلاحظ أن عمق طبقة الرمال التي تخفي أجزاء مهمة من الأبنية تتراوح بين ثلاثة وأربعة أمتار . ولا يخفى أن شأن تدمر انحط تماماً بعد تهديمها سنة (٢٧٣ م) على يد الأمبراطور أورليان ، وأنها لم تستعد مكانتها القديمة فيما بعد ، ولم تستخدم أبنيتها في غير الغاية التي أنشئت من أجلها إلا فيما ندر وفي أغراض عسكرية فقط (شأن البناء المسمى حالياً معسكر ديوكليسيان وسور معبد بل الذي حول في القرن الثاني عشر الميلادي إلى قلعة عربية) . لهذا فان الأبنية التدمرية لم تهدم ، ولم تسرق أحجارها كما حدث ذلك في كثير من المناطق الأثرية الأخرى .

ويدعونا كل ما تقدم إلى القول إن تدمر تقدم شروطاً مثلية للتنقيب الأثري . وتتضمن منطقتها إمكانيات عظيمة لن تنضب قبل زمن طويل . فبعد الدراسة الوصفية عن البقايا الظاهرة من أوابدها التي قام بها العلماء الألمان برآسة ت . ويغان ، وبعد التنقيب العلمي في مقابرها الذي أجراه العالم الدانيمركي هـ . إنكولت وبعد الدراسات العميقة التي صاغها هـ . سيريغ ، ور . آمي ، و د . شلومبرجة ، و ج . . غ . فيفرية و ، ج . كانتينو ، و ج ستاركي وغيرهم عن الأوابد والديانات التدمرية ، تقوم مديرية الآثار العامة في سورية فتتصور وتصوغ مشروعاً ضخماً جميلاً لكشف كل ما خفي من الأطلال التدمرية الواسعة . وقد أظهرت حتى الآن بناء السوق (الاغورا) قبل الحرب ، وبناء المسرح منذ مدة قصيرة . وبيّنَ هذان العملان العظيمان النتائج الباهرة والمفيدة التي سينجلي عنها هذا المشروع الجبار . وتتابع الأعمال لتحقيقه بانتظام . إلا أن الواجب كبير جداً ، ويمكن أن يفسح فيه المجال لمساهمات مفيدة وخصبة تقوم بها بعض البعثات الأثرية (١)

هذا وقد وضعت على بساط البحث قضايا خاصة من جراء دراسات الاطلال التدمرية ومن جراء كشفها ، ويحسن التنويه بها . فقد اقتضى القيام باجراء أعمال ترميم وتمتين واسعة في القوس الضخم ، وفي معبد بل ، وفي الرواق الأكبر وفي عدد كبير من المدافن . كما أن مدفن يرحاي نقل إلى المتحف الوطني في دمشق ، وأعيد هناك تركيب زخارفه ، فكان ذلك عملاً دقيقاً للغاية ، وقد كلل بالنجاح .

ثم أن الحل الذي اتخذ لعزل معبد (بل) عما كا يجاوره من منشآت قروية طفيلية كان جريئاً جداً . فقد نقلت القرية برمتها ، بعد أن كانت بيوتها تملء صحن المعبد ، وأعيد إنشاؤها شمالي حدود المدينة القديمة . وتبين الآن بعد مضي عشرين سنة على ذلك العمل ، مقدار النجاح الذي لاقاه هذا الحل . إذ أن التدمريين يعيشون حالياً في مدينة صغيرة جديدة ذات شوارع واسعة مهواة ، وتتوفر فيها شروط مدنية وصحية تامة . ويمكننا أن نذكر هذا المثل الرائع عن الحلول الأثرية الناجحة . ولم يبق في صحن المعبد إلا منزل مديرية الآثار العامة في الزاوية الجنوبية الشرقية من

(١) سمحت مديرية الآثار العامة لبعثة أثرية سويسرية يرأسها بول كولار رئيس اللجنة التي وضعت هذا التقرير بالتنقيب في منطقة معبد بعل شامين .

السور ، الذي يفتح بابه إلى علماء الآثار الوافدين ويتركهم يتمتعون بجوه اللطيف ، ويكرمهم بسخاء .

إلا أن تدمر لم تكن مدينة فحسب ، بل مركزاً طبيعياً لمنطقة واسعة تمتد من جبال لبنان الشرقية إلى الفرات . وقد بدأ العصر الحاضر يفهم اتساعها وأهميتها ، وأنه كان لها على طرق الصحراء المتقاطعة ، وعلى نهاية هـذه الطرق على نهر الفرات ، مناطق أخرى تابعة لها كان لها شأن في فترات مختلفة من التاريخ . وقد تركت هذه المناطق آثاراً عظيمة ما زالت ماثلة حتى يومنا هذا .

قصرا الحير الغربي والشرقي

وكانت تدمر كما بين ذلك د . شلومبرجه في كتاب صدر حديثاً أقل انعزالاً مما يتصور . فقد ازدهرت مراكز أخرى غير حاضرتها في انحاء مختلفة من أراضيها . ونشأت هذه المراكز في السهول حيث توجد واحات نظمت في أراضيها أعمال واسعة للري ، وقامت قرى للرعاة في الجبال الواقعة في شمالها الغربي ، بعد أن شقت فيها الصهاريج التي تحفظ المياه لسكانها خلال أشهر الصيف . ولم تعش هذه القرى بعد تهدم تدمر ، وهجرها أهلها . إلا أن السدود والأقنية التي أنشئت فيها خلال العصر الروماني بقيت إلى العصور التالية ، واستفاد منها البيزنطيون والعرب . وأمكن بفضل هذه السدود والأقنية بناء قصرين عظيمين شرقي تدمر وغربيها ، دعيا بقصر الحير الشرقي وقصر الحير الغربي ، وما زالت أطلالها قائمة وسط المساحات الصحراوية الواسعة . وكانا قديماً محاطين بالبساتين المسورة بالجدران ، وقد استخدما كقصرين وقلعتين بآن واحد .

وبنى الخليفة هشام سنة (٧٢٧ م) قصر الحير الغربي ، وجعله مقراً فخماً له ولحاشيته. ويدل على أطلاله من بعيد برج بيزنطي شاهق لم يبق منه إلا الصفوف السفلية من جدرانه ، وكانت من الأحجار المنحوتة . وقد كشف د . شلومبرجه عن هذه الأطلال التراب بين سنتي ١٩٣٦ و ١٩٣٨ . وأظهرت هذه التنقيبات مخطط القصر (الذي هو مربع مدعوم بأبراج ، وداخله باحة متوسطة ذات أروقة ، وله مدخل شرقي واحد) ، كما أظهرت بقايا لا تحصى من زخارفه الجصية ، وصوراً جدارية كانت أمثلة عجيبة وتامة عن الفن الأموي في سورية .

وكذلك فان هشام بن عبد الملك هو الذي شيد قصر الحير الشرقي سنة (٧٢٩ م) بالقرب من بناء قديم مسور . وقد احتفظ هذا القصر بجدرانه وأبراجه . ويختص البرجان المحيطان بالمدخل أن أقسامها العلوية مزينة بزخارف مؤلفة من أقواس قائمة على سويريات . أما الأقسام العلوية من الأبراج الأخرى فانها مزينة بأشرطة فخارية . وفوق مدخل القصر واجهة مستديرة كانت تعلوها شراريف .

وعلى الرغم من أن هذين القصرين متشابهان ومن عصر واحد ، فقد وضعا أمام مديرية الآثار العامة قضيتين مختلفتين . إذ لزم العمل على استنتاج المواضيع الهندسية التي كانت تؤلف زخارف القصر الأول ، كما لزم صيانة هذه الزخارف التي عثر على آلاف قطعها أمام جدرانه ، ونقلها ، وإعادة تركيبها في المتحف الوطني من دمشق ، وعرضها في جناح خاص أنشيء في هذا المتحف على شاكلة القسم الشرقي من قصر الحير . وقد احتاج هذا العمل الدقيق إلى سنوات طويلة من جهود مبدعة متتابعة ، حتى غدا الجناح المعاد تشييده من أجمل الآثار التابعة للمتحف المذكور . أما قصر الحير الشرقي فقد لزم إصلاح وترميم أسواره وأبراجه التي زالت قواعدها بسبب الرطوبة ورياح البادية . ولاقت مديرية الآثار العامة كثيراً من المصاعب في تنظيم أعمال ورشتها في تلك المنطقة النائية ، وفي تغذية هذه الورشة بما تحتاجه من مواد ومياه ، حتى تكللت أعمالها هناك بالنجاح ، وأنقذت أسوار وأبراج هذا القصر . وسيتابع العمل فيها قريباً جداً .

الرصافة

ووجدت البعثة الألمانية التي تدير أعمالها السيدة كاترينا أوتو ـ دورن سنة ١٩٥٢ قصراً آخر للخليفة هشام بين أنقاض مدينة إسلامية واقعة خارج أسوار الرصافة . ولا يخفى أن الخليفة هشام مات في الرصافة ودفن فيها .

ومما يجدر ذكره أن الرصافة لم تشتهر حتى الآن إلا بالأوابد المسيحية المشيدة داخل سورها الواسع . ولا شك أن لهـذه الأوابد أهمية كبرى في تاريخ سورية الشمالية وتاريخ عمارتها خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين . وأهم هـذه الأوابد وأعظمها ، وأكثرها حفظاً كنيسة القديس سرجيوس الذي مسح مخططها ج . كولويتز ، على أثر الحفريات التي أجراها فيها . ويظهر أن هـذه الكنيسة تعود إلى النصف الثاني من القرن

الخامس . أما بقايا كنيسة الاستشهاد وكنيسة كبيرة أخرى ، فإن معظم أقسامها ما زالت مطمورة بعد ، تحت التراب . ويمكن رؤية زخارفها المنحوتة المنتشرة حول الحنايا المقببة ، وتيجانها ، وأقواسها . كما يجدر التنويه بأبنية أخرى أصغر من الأوابد المذكورة ، والتلميح أنه توجد كنيسة جنازية خارج السور خاصة ويلاحظ أن الأحجار التي بنيت منها هذه الأوابد ذات طبيعة خاصة أي أنها من الجص المبلور الذي يضفي عليها صفة رائعة جداً .

وتلاحظ أيضاً زينة باب السور الشمالي ذات الغنى الوافر . وتتألف من خمسة أقواس بأبعاد مختلفة ، محمولة على أعمدة . وقد شبه تركيبها وأسلوبها ببعض أقسام قصر الأمبراطور ديوكليسيان في مدينة (سبليت) .

ولا ريب أن سعة أطلال الرصافة ، وضخامة أوابدها ، وبعد موقعها عن العمران ، تجعل التنقيب والاكتشاف فيها صعبين للغاية . وليس لنا إلا أن نسر سروراً فائقاً لقيام الأعمال الأثرية فيها اليوم ، وأن نتمنى أن تتابع هذه الأعمال في المستقبل على شكل واسع .

وادي الفرات

ولا يمكن فصل طريق الفرات عن طرق الصحراء الأخرى لأن هذه الطريق تمر هي الأخرى على حصون وقلاع أنشئت خلال عصور مختلفة في نقاط تلاقي الطرق التي تبدأ من تدمر وتقاطع مجرى النهر . وتلك هي حال دورا والرقة .

أما دورا أوروبوس (الصالحية) فهي مدينة أنشأها السلوقيون في آخر القرن الرابع قبل الميلاد ، واحتلها الفرثيون ، ثم الرومان ، وارتبطت آنئذ ارتباطاً وثيقاً بتدمر . حتى استباحها الساسانيون وهدموها سنة (٢٥٦ م) . وكانت هذه المدينة تحتل فوق الفرات هضبة يحدها واديان ضيقان . وعلى هذا فقد كانت حارسة أمينة لتأمين عبور النهر ، ومركزاً للقوافل ، ومرفأ نهرياً ممتازاً ، أي أنها كانت متمتعة بمركزين استراتيجي واقتصادي هامين جداً . ولم ينتبه أحد إلى موقعها إلا سنة (١٩٢١) لما اكتشفت صدفة بعض التصاوير الجدارية لمعبد الآلهة التدمرية التي نقلت إلى المتحف الوطني في دمشق . وقد بدأ بالتنقيب فيها العالم البلجيكي ف . كومون ، ثم تابعت هذا التنقيب جامعة ييل الأميركية تحت رئاسة العالم ج . روستوفتزيف ، فتبين بنتيجة ذلك أن للمدينة شوارع منظمة على شكل رقعة الشطرنج شأن كثير من المدن اليونانية . كما ظهرت على أثر التنقيبات عدة أبنية مهمة ، منها أحد عشر معبداً كبيراً ومعبدان صغيران ، وكنيسة مسيحية ، وكنيس يهودي ، وسوق ، وعدة حمامات ، وعدد كبير جداً من المنازل . ومن الأشياء الأثرية المهمة المكتشفة مجموعات الصور الجدارية للكنيسة والكنيس التي أعيد تركيبها في (ييل) ودمشق .

وعلى الرغم من أن مدينة الرقة كان لها بعض الأهمية في الأزمنة اليونانية والرومانية ، فإن البقايا الأثرية فيها ترقى جميعها إلى العهود الاسلامية التي بدأت فيها لما شيد الخليفة المنصور في أرضها مدينة الرافقة سنة (٧٧٢ م) . وأشهر هذه البقايا الأثرية باب بغداد ذو الزخارف الفخارية الجميلة ، ومسجد نور الدين الذي يعود عهده إلى القرن الثاني عشر الميلادي ، ويتصف بأقواسه الجميلة ومئذنته المستديرة . هذا وقد قامت مديرية الآثار العامة منذ مدة قريبة بالتنقيب عن بقايا القصور التي أنشأها الأمراء العباسيون خلال القرن التاسع خارج سورها . وقد نفذ أعمال الحفريات السيد نسيب صليبي ، وأدت هذه الأعمال إلى اكتشاف قصر في سنة ١٩٥٢ يبعد ثلاثة كيلو مترات شمالي السور ، وعثر في هذا القصر على غرف كثيرة محاطة بالحدائق ، وظهرت فيه أيضاً كتابة كوفية باسم الخليفة المعتصم ، وعدد كبير من قطع الجص المخرمة ، وصورة جدارية هندسية ، وعدد من الأواني الزجاجية والفخارية المطلية . وهذا القصر جزء من منشآت ضخمة ستعمل مديرية الآثار العامة على كشفها بصورة علمية مستمرة [1] .

ومن اللازم ذكر منطقة ماري (تل حريري) التي كانت قبل ثلاثة آلاف سنة من دورا قائمة على بعد أربعين كيلو متراً منها إلى الجنوب ، على طول الفرات وفي موقع ممتاز مشابه لموقعها . وكلنا نعلم أهمية المكتشفات الأثرية كالتماثيل والحلي ، والفسيفساء الصدفية ، واللوحات المكتوبة التي وجدتها فيها البعثة الأثرية الافرنسية التي تعمل هناك منذ سنة ١٩٣٤ برئاسة المسيو

(١) لقد كشفت هذه المديرية في خريف عام ١٩٥٣ قصراً عباسياً آخر أضخم من القصر الاول ، وهو ينقسم إلى ثلاثة أجنحة كبرى : جناح الاستقبالات الرسمية ، وجناح المنازل الخاصة ، وجناح الحدائق . ولم يعثر فيه على أي نص مكتوب يمكن بواسطته رده إلى صاحبه .

أ . بارو . وهذه المكتشفات الرائعة محفوظة في متحفي اللوفر وحلب . ويمكن مشاهدة الحديثة منها في معرض المكتشفات الاثرية في دمشق . وكان السور المثلث لمدينة (حلبية) التي كانت تدعى زنوبيا قديماً المبني منذ العصر الروماني يمنع بواسطة أبراجه المتقاربة من عبور المضيق المؤلف على ضفة الفرات من هضبة بازلتية مرتفعة . وأخيراً نذكر مسكنة التي كانت تسمى قديماً (باليس) ، والتي فيها اليوم مئذنة أثرية من الآجر . وتقع هذه المدينة في نقطة التقاء طريق إنطاكية وحلب بالفرات .

وتختص معظم أبنية المدن التي ذكرناها أنها مشيدة من الطوب على طريقة بلاد الرافدين . كما أن سعة هذه المناطق وبعدها يجعلان العناية بالابنية المذكورة وتقويتها من الصعوبات الكبرى التي لا يمكن حلها . ويظهر أن أهمية المكتشفات في ماري ودورا والرقة تفوق أهمية أبنيتها الاثرية التي أظهرتها التنقيبات . لهذا فانه بعد أن ترسم مخططات هذه الابنية عقب إجراء الحفريات ، وبعد أن تؤخذ صورها الفوتوغرافية ، فان أطلالها تترك وشأنها . ولا يبق على المتاحف والنشرات العلمية إلا أن تبعثها من جديد ، وتخلد ذكراها .

مصادر مختصرة

س . عبد الحق : إعادة تشييد جامع من قصر الحير الغربي في متحف دمشق ، مجلة الحوليات الاثرية ، الجزء الأول ، ص (٣) وما يتبعها بالعربية .

ب . ف . س . بور و م . ج . روستوفتزيف الخ . : حفريات دورا أوروبوس ، التقارير التمهيدية ، عشرة أجزاء ، نيوهافن ١٩٢٩ – ١٩٥٢

ج . بل : سورية ، الصحراء والتلع ، لوندرة ، ١٩٠٧ .

ف . كومون : حفريات دورا أوروبوس . باريس ، ١٩٢٦ (م . أ . ت ، الجزء التاسع) ، بالافرنسية

دوموتيل دوبويسون : صور كنيس دورا اوروبوس ، روما ، ١٩٣٩

إ . هونفيلد ، الموسوعة الاسلامية ، مادتا (الرقة) و (الرصافة) ، ص : ١١٨٥ – ١١٨٧ و ١٢٦٥ – ١٢٦٧ ، ليد – باريس ١٩٣٦ .

ه . انغولت : دراسات من النحت التدمري ، كوبنهاغ ، ١٩٢٨ باللغة (الدانيمركية) .

اربعة مدافن مؤرخة من تدمر ، مجلة بيريتوس ، ١٩٣٥ ، ص : ٥٧ – ١٢٠ ، و ١٩٣٨ ، ص : ٩٣ – ١٤٠ ، بالانكليزية .

ج . لوفرة : الحانوقة (زنوبيا – حلبية) ، مقال منشور في مجلة الحوليات الاثرية السورية ، الجزء الاول ، ١٩٥١ ، ص : ٤١ – ٥٨ بالافرنسية .

أ . بارو : حفريات ماري ، تقارير تمهيدية ، مجلة سيريا ، الجزء السادس عشر ١٩٣٥ ، وما يتبعه ، بالافرنسية .

= = : ماري مدينة مفقودة . باريس . بالافرنسية .

= = حفريات ماري ، تقارير عن مواسم الحفر مجلة الحوليات الاثرية السورية، الاجزاء الصادرة

أ . بوادبار : أثر روما في صحراء سورية ، جزءان ، باريس ، ١٩٣٤ (م . أ . ت ، الجزء الثامن عشر) بالافرنسية .

م . روستوفتزيف : المدن ذات القوافل ، اوكسفورد ، ١٩٣٢ ، بالانكليزية .

د . شلومبرجيه : الشمال الغربي من منطقة تدمر ، باريس ، ١٩٥١ ، (م . أ . ت ، الجزء التاسع والأربعون) ، بالافرنسية .

= = : حفريات قصر الحير الغربي (١٩٣٦ – ١٩٣٨) مجلة سيريا ، المجلد العشرون ، ١٩٣٩ ، ص : ١٩٥ . بالافرنسية .

ه . سيريغ : الآثار السورية القديمة ، ثلاثة أجزاء ، باريس ، ١٩٣٤ – ١٩٤٦ بالافرنسية .

ه . سبانر وس . غويير ، الرصافة ، برلين ، ١٩٢٦ بالالمانية .

ج . ستاركي ، و ص . منجد : تدمر ، دمشق ، ١٩٤٨ ، باللغات الثلاث العربية والافرنسية والانكليزية .

ث . ويغاند وث . كرانشر الخ . . . والانكليزية تدمر ، جزءان ، برلين ، ١٩٣٢ ، بالالمانية .

المنطقة الساحلية

وادي العاصي

يجب أن نوسع المنطقة الساحلية لدى دراستنا لها حتى وادي العاصي. لأن هذا الوادي يؤلف الحدود الشرقية لهذه المنطقة من الناحيتين الجغرافية والتاريخية . وهو وحـــدة طبيعية بين سلسلة جبال العلويين والهضبة الشرقية الحوارية ، ويعد جزءاً من الانخفاض الطبيعي الطويل الذي يتألف خلف لبنان من الشمال إلى الجنوب . كما أن القلاع المنيعة التي اعتصم بها العرب لدى هجوم الصليبيين على بلاد الشام ، واستطاعوا أن يحموا منها سورية الداخلية ، تتدرج على مجرى هذا الوادي كبعلبك وحمص وحماه ، وشيزر ، والمضيق . وهي مهمة للغاية وجميلة جداً .

ويجدر في هذا المقام أن نلم أيضاً بذكر منطقتين أثريتين متباينتين

أولاهما منطقة أفامية التي تحوي أطلالاً كثيرة مهيمنة على سهل مستنقعي يؤلفـــه نهر العاصي . وتظهر خلالها بقايا متفرقة من الأوابد التي كانت قائمة فيها . وقد تابعت أعمال الاكتشافات الأثرية فيها بعثة بلجيكية عملت برئاسة العالم ف. مايانس ثم هـ. لاكوست. ويشاهد اليوم على أرض هذه المنطقة كثير من قواعد الأعمدة ، وجذوعها ، وتيجانها ، وما كانت تحمله من أطاريف وأفاريز . كما تعرف فيها ،بسهولة، تخطيطات الشارع الكبير ذي الأروقة وأماكن عدد كبير من الأبنية المختلفة .

وثانيتها منطقة حماة ذات السحر الرائع ، والبساتين المخضرة على العاصي والنواعير العالية ذات الزئير الرتيب . وفي هذه المدينة آبدتان مهمتان حريتان بكل اهتمام . وهما المسجد الكبير بمئذنتيه اللتين يعود عهدهما إلى عصرين مختلفين ، وبصحنه ذي الأروقة وقبابه البيضاء ، وببعض أقسامه التي ترقى إلى أزمنة قديمة . ثم قصر العظم الذي يشتهر بالاقواس الرشيقة القائمة في باحته العلوية ، ونوافذه المزينة ، وقاعة استقباله الكبرى ذات القبـــة المزخرفة بزخارف فخمة للغاية،والتي يرجع تاريخه إلى سنة (١٧٧٨م) ، ويتمم سحر المدينة القديمة جو ضواحي النهر، ويدام بجعل الاقامة في حماة مملوءة بالبهجة والأنس .

المناطق القديمة :

ولا يمكن المناطق القديمة الساحلية أن تستوقفنا طويلاً اذا أخذنا بعين الاعتبار المهمة التي كلفنا بتحقيقها ، على الرغم من جمال هذه المناطق وشهرتها . وذلك لأن المحافظة عليها والاستفادة منها لا تستدعي منا ملاحظات خاصة .

فميدان حفريات رأس شمرة مازال في فاعلية شديدة . وتعنى به البعثة الافرنسية التي يديرها منذ أربعة وعشرين عاماً ك . شيفر . والأهمية التي يجدها المرء في زيارة الاطلال ناشئة خاصة عن الاكتشافات العظيمة التي حدثت فيها . ويصعب على الزائر إذا لم يكن مطلعاً على ذلك أن يستعرض تاريخ (أوغاريت) الطويل . وما زالت النصوص الكثيرة التي وجدت هناك قيد الدراسة . وأثمن الأشياء الأثرية التي ظهرت معروضة حالياً في جناح المعارض من المتحف الوطني في دمشق .

هذا وتذكرنا أوابد عمريت الضخمة[1] ، وأسوار جزيرة

---

(١) اجرت مديرية الآثار العامة مستعينة بالخبير الأثري موريس دونان حفريات واسعة جداً في هذه المنطقة ، في فاتحة هذه السنة . وقد أظهرت هذه الحفريات معلومات جديدة من عصر النحاس في سوريا ، ومـــن القرون الأولى الميلادية السورية .

أرواد العظيمة التي كانت تدافع عن هذه المدينة من جهة البحر بسلطان الفينيقيين على الساحل السوري ، ومقدار ما بلغوا من تقدم .

ويأتي بعد هذه الآثار في القدم مسرح جبلة الروماني الذي عملت مديرية الآثار العامة على الكشف عنه . وقد أصبح بنتيجة أعمالها آبدة ضخمة ذات أهمية كبرى لما لها من تفاصيل بنائية غير مألوفة كـ (هياكل القباب المائلة التي تحمل درجاته ، وأوضاع أدراجه حول صحنه) .

وأخيراً يجدر التنويه بجمال التيترابيل الكبير أو (قوس النصر) في اللاذقية التي أجرت مديرية الآثار العامة أعمال ترميم واسعة فيه .

حصون الصليبيين :

وتمتد من الساحل إلى الداخل على الجبال الأوابد الكبرى التي تركها الصليبيون والتي تسترعي الانتباه . وهذه الأوابد شواهد على الجهود الجبارة التي بذلها الغربيون خلال قرنين من الزمن ، في سبيل استبقاء هذه المنطقة في أيديهم . وشأنها في ذلك شأن القلاع العربية العظيمة التي أقيمت على العاصي مقابل هذه القلاع ليدافع سكان البلاد منها عن حوزة أوطانهم . وهي آثار رائعة جداً ليس لها مثيل في فن البناء العسكري خلال القرون الوسطى وتدهشنا بمنشآتها الدفاعية ، وبالأسلوب الذي احتذاه بناتها ، وببعض أجزائها التي يمكن نسبتها إلى الفن القوطي .

وأعظمها على الاطلاق قلاع صهيون والمرقب ، والحصن التي تروع النظر بمواقعها الساحرة ، وبكتل منشآتها العظيمة ، وبالذكريات التاريخية التي تبثها .

وتحتل قلعة صهيون (ساوون كما يسميها الصليبيون) رأساً ضيقاً مرتفعاً بين واديين متداخلين ، كان الفينيقيون ثم البيزنطيون من بعدهم ، قد حصنوه ، وارتكزوا عليه . وهو يتألف اليوم من مجموعة كبرى من المنشآت غير المتجانسة التي شيدها البيزنطيون والصليبيون والعرب . ويلاحظ فيه خاصة العمل الجبار الذي أدى إلى خرق الصخر وعزل الحصن ، بعد أن تركت في وسط الوهدة السحيقة ، إبرة حجرية طويلة يمكنها أن تحمل الجسر المتحرك الذي كان يؤدي إلى الحصن . اما قلعة المرقب (مارغت كما يسميها الصليبيون) فانها ، تشرف فوق بلدة بانياس ، كوكر النسر ، على الطريق الساحلية ، من هضبة مثلثة الشكل ذات جوانب شديدة الانحدار . ويمتد حول هذه الهضبة سورا القلعة المزدوجان . وأجمل ما في القلعة البرج الجنوبي الذي يحمل كتابة جميلة من زمن السلطان قلاوون والكنيسة ذات البهو الواحد والبابين الأثريين المتوجين بهالتين متداخلتين من الزخارف الحجرية . وأخيراً فان قلعة الحصن أو (الكراك دوشوفاليه حسب الصليبيين) أجمل هذه القلاع على الاطلاق ، وهي تقوم كمحطة في وسط جبال جرداء ، لمراقبة الممر الطبيعي الممتد من طرابلس إلى حمص ، وقوتها الدفاعية عظيمة جداً ، وتتألف من سورين متداخلين لها أبراج مستديرة ومربعة ، وأسوار شاهقة ، وشراريف ومخابىء وعنابر تحت الأرض ، ومنحدرات شاهقة مائلة تكمل نحو الأعلى المنحدرات الطبيعية . وتباين هذه العمارة الضخمة ، العمارة الرشيقة التي نشاهد في القاعة الكبرى ، وفي الرواق الذي يقع أمامها وفي قبابها المتعامدة ، وأبوابها المزينة بالسوريات ، ونوافذها المزخرفة بالطيقان ، وزينتها المنحوتة ، كما يشاهد الأسلوب الرشيق في الكنيسة ذات البهو الواحد الذي يغطيه سقف على شكل مهد مجزوء محمول على دعائم مزدوجة . وقد استسلم فرسان جمعية المستشفى الذين كانوا يدافعون عن هذه القلعة سنة ١٢٧١ أمام الملك الظاهر بيبرس ، فكان استسلامهم فاتحة لانهيار سلطان الصليبيين في سوريــــة .

ويلاحظ أيضاً هذا التضاد بين المنظر الخارجي الحصين ، وبين فن البناء الداخلي الرشيق الذي يروع النـــاظر ، في حصن صافيتا (كاستل بلانك) . وقد أحاطت البيوت الحديثة هذا الحصن على الشكل الذي كان لهذه المدينة خلال القرون المتوسطة . ولا توجد إلا نوافذ صغيرة جداً في جدران هذا البرج المربع ، وفي داخلها كنيسة تتجلى فيهـا رشاقة قوية ، وفيها بهو واحد تعلوه قبة كالمهد مجزوءة ، وفي الطـابق الثاني منه قاعة علوية تعلوهـــا قباب ذات حروف ، وهي مقسومة بعدد من الدعائم إلى بهوين .

ونشاهد نفس الصفة المتقدمـــة في طرطوس حيث ما زالت توجد داخل قلعة فرسان خدم المعبد ذات الاسوار الضخمة ، آثار قاعتين جميلتين تعلوهما قباب متعامدة ومتصالبة . وتقع كاتدرائية سيدة طرطوس على بعد عدة مئات من الأمتار من المدينة القديمة . وهي ما تزال بحالة جيدة ، وتمثل فيها نموذج الكنيسة المحصنة . وواجهتها قاسية وغريبة جداً . ولها برجان في طرفيها . أما داخلها ففيه ثلاثة أبهاء ، ودعامة ذات هيكل عجيب لا يمكن تفسيره . وخلاصة

القول إنها من أجمل الأوابد التي تركها الصليبيون على ساحل بلاد الشام [١] .

القضايا الحالية :

يمكننا توجيه نوعين من الملاحظات على الأبنية التي تحدثنا عنها . والملاحظات الاولى هي أن الاعتمادات اللازمة التي تحتاجها العناية بهذه الأوابد الضخمة ، وتمتين بعض اجزائها التي توشك أن تنهار، عظيمة جداً . وتقوم مديرية الآثار العامة بجهود جبارة في هذا المضمار . إلا أن وسائلها محدودة ، ولا يمكنها أن توجه قواها إلى كل الأمكنة الأثرية بآن واحد . وقد التفتت خاصة إلى الإصلاحات السريعة التي تطلبها حال قلعة الحصن . ولا يخفى أن هذه القلعة كانت محل عناية خاصة سنة ١٩٣٦ . حيث أخليت القرية التي كانت ضمن سورها ، وأصلحت باحاتها . إلا أن كثيراً من الاضرار حلت فيهـــا منذ ذلك التاريخ . فنهضت مديرية الآثار العامـة لاصلاح أسوارها وأبراجها ، وإعادة تشييد قبابهـا ، وتجديد درج منهار فيها ، واستبدال الزخارف الحجرية البالية في نوافذ وأبواب الرواق الواقع أمام القاعة الكبرى منها . إلا أن بعض النوازل ما فتئت تحل بها . فقد سقطت الصاعقة منـذ مدة على برج منها فهدمته [٢] ، وعلت الحشائش الضارة منحدرها . مما أجبر مديرية الآثار على أن تعمل فيها بدون انقطاع . وكان كل ذلك في قلعة واحدة ، فما بالك ببقية القلاع .

ونحن نعلم مقدار العناية التي تبذلها مديرية الآثار العامة في تحقيق هذا الواجب ، وأنها مصممة على متابعة جهودها . ويجب توجيه التهاني الحارة إليها على ذلك . وكل ما نتمناه أن يزود موظفوهـا الفنيون البارعون المكافئون بتنفيذ هذه الاعمال بنصائح خبير كبير لما يحاولون القيام ببعض الاعمال المعمارية الدقيقة . ومن اللازم أن نقول مثل هذا القول في الاعمال الجارية لترميم مئذنة الجامع الكبير في حلب [٣] .

(١) جردت مديرية الآثار العامة منذ كتابة هذا التقرير حملتين من رجالها الفنيين وعمالها على هذه الكاتدرائية في آخر سنة ١٩٥٣ ، وفي صيف سنة ١٩٥٤ ، لاصلاحها كلها . وهي تأمل الا تحل خاتمة هذا العام ، الا وتكون هذه الكاتدرائية الجميلة قد انقذت تماماً ، وأصلحت اصلاحاً تاماً .

(٢) اصلح هذا البرج في هذا العام

(٣) لقد تعاقدت منذ مدة قريبة مديرية الآثار العامة تحقيقاً لرغبة لجنة الاونيسكو مع خبيرين عالميين كبيرين ، لتستنير بآرائهما لدى تنفيذها بعض المشاريع الدقيقة الصعبة .

ثم إن النوع الثاني من الملاحظات التي يجدر بنا توجيهها تتعلق بالجهود التي تتطلبها العناية بهذه الابنية الأثرية التي يمكن أن تخف وطأتها على الحكومة السورية ويسهل أمرهـــا ، إذا أخذت بعين الاعتبار القيمة السياحية التي تمثلها . ويتعذر اليوم على السائحين بلوغ هذه الأبنية الأثرية الجميلة . ويدل على ذلك عـدد الزوار الضئيل الذين يؤمونها (متوسط عدد زوار قلعة الحصن شهرياً مائة وعشرون في الشهر الواحد) . وتلزم سيارة جيب لمن يريد أن يصل إلى قلعـة الحصن أو إلى قلعـة المرقب . أما قلعة صهيون فلا تصل إليها أية سيارة ، على الرغم من أن الطرق الجبلية لهذه القلاع قـد خطت ، ويكفي لجعلها صالحــــة لسير السيارات أن يعنى فقط بعدة كيلو مترات من كل منها . وإذا تم ذلك لشوهدت أفواج السائحين تتقاطر من كل مكان لزيارتها . ونحن نظن أن رسوم زياراتهم يمكن ان توفر دخلاً لا بأس به يمكن استخدامه في إصلاحها .

وفي الواقع إن لهذه المنطقة مزايا عديدة تسهل استثمارها . فهي قريبة من البحر ، وإذا أصلحت طريق قلعة الحصن لامكن وضع زيارتها في برامج أسفار البواخر التي تمخر عباب البحر الابيض المتوسط الشرقي ، شـأن زيارة بعلبك أو زيارة دمشق الموضوعتين في برامج عدد من أسفار البواخر . كما ان السائحين الذين يأتون خصيصاً إلى سورية ويقصدون هـذه المنطقة بحاجة إلى فندق لائق في طرطوس ينزلون فيه ، حتى يتمكنوا من زيارة أرواد ، وصافيتا ، وقلعة المرقب . كما يمكن حالياً القيام بزيارة جبلة ورأس شمرة ، وصهيـــون من اللاذقية [١] . ثم أنه يجب افراغ مستودع الاخشاب والادوات الذي جعلته بلديـــة طرطوس في الكاتدرائية [٢] . كما أن إقامة بيت للسائح في قلعة الحصن يجعل زيارة هذا المكان ميسورة على من يريد ذلك من طرطوس، وطرابلس وحمص ، وحماه ، ودمشق .

وهكذا يمكن توسيع الحركة السياحة في هذه المنطقة التي يضاف جمالهـا الطبيعي إلى سحر أوابدها ، فيستفيد سكانها كما تستفيد كل سورية من ذلك .

(١) لا يمكن اصلاح الطرق المؤدية إلى هذه المناطق الأثرية ، وإلى غيرها من المناطق ، ولا إنشاء مثل هذا الفندق هنا ، وفي غير ذلك مـن الأنحاء السورية ، إلا إذا أنشئت مديرية كبرى او وزارة السياحة في سورية تأخذ على عاتقها إزالة كل ما يحول من جعل سورية بلاداً سياحية مهمة .

(٢) لقد تم ذلك ، وستتحول هذه الكاتدرائية إلى متحف بعد انتهاء أعمال الترميم فيها .

مصادر مختصرة

ب . ديشامب ، قلعة الحصن ، جزءان ، باريس ، سنة ١٩٣٤ (م . أ . ت . الجزء العشرون) ، بالافرنسية .

ك . انلار ، اوابد الصليبيين في مملكة القدس ، اربعة اجزاء ، باريس ١٩٢٥ – ١٩٢٨ (م . أ . ت . ، الجزءان السابع والثامن) بالافرنسية.

س . بدي ، قلاع الصليبيين ، لوندرا ، سنة ١٩٥٠ ، بالانكليزية .

غ . ريه ، عمارة الصليبيين العسكرية ، باريس ، سنة ١٨٧١ ، بالافرنسية .

ك . ف . ا . شيفر ، حفريات رأس شمرة ، تقارير موجزة ، مجلة سيريا ، الجزء العاشر سنة ١٩٢٩ ، وما بعدها بالافرنسية

« « « تقارير عن حفريات رأس شمرة ، مجلة الحوليات الأثرية السورية ، سنة ١٩٥١ ، وما بعدها ، بالافرنسية ، وفي اعداد هذه المجلة خلاصات وافية عنها بالعربية .

« « « أوغاريتيكا ، باريس سنة ١٩٣٩ ، و ١٩٤٩ (م . أ . ت . الجزءان الحادي والثلاثون ، والثامن والأربعون) ومقالات متعددة في مجلات أخرى .

المدن الميتة في الشمال

في البلاد ذات الأطلال التي لا تحصى :

يوجد قليل من البلاد التي تستطيع منافسة سورية الشمالية بعدد الأطلال التي فيها ، وبأهمية هذه الأطلال ، وبكثافتها . وقد دلت عليها رحلة الفيكونت ملخيور دو فوغه التي قام بها سنة ١٨٦١ . ولم تكن المواقع الأثرية التي تحدثت عنها هذه الرحلة إلا جزءاً صغيراً من الثروات الأثرية التي تملكها هذه البلاد . وكذلك فان البعثتين الاميركيتين اللتين أرسلتا الى سورية بعد أربعين عاماً من انقضاء الرحلة المتقدمة لم تدرسا كل ما يجب دراسته . والى الآن لم تحص المواقع الأثرية في سورية الشمالية إحصاءاً تاماً ، لأن عددها يزيد على المئات .

ويقع قديماً عهد ازدهار هذه البلاد السورية الشمالية التي تدل عليه وفرة أطلالها ، بين القرنين الاول والسابع بعد الميلاد . ويبدأ بفتح الرومان لبلاد سورية ونشر السلام فيها ، وينتهي بعد الفتح العربي [1]

وقد عني العلماء خاصة بادئ الامر بالكنائس بين كل المنشآت الأثرية . وصدرت عدة كتب أبانت الدور الهام الذي لعبته سورية في تطور فن البناء المسيحي والديني . إلا أن عمل المؤلفين هذا لا يخلو من نقد ، لأنهم فصلوا الكنائس عما يحيط بها من منشآت أثرية أخرى ، بصورة غير طبيعية . ولهذا فمن اللازم أن نتسع اليوم معارفنا عن هذه المواقع ، حتى نتمكن من أن نميز مختلف نماذج أبنيتها سواءاً أكانت هذه الأبنية دينية أو مدنية قائمة في مجموعات تزخر بها أنحاء تلك المنطقة . وفي الواقع إن الكنيسة لا تكون منعزلة عن غيرها إلا نادراً . فهي عنصر من عناصر مجموعة بنائية في مدينة صغيرة أو في دير . ويكشف كل جزء من هذه المجموعة عن وجوه مختلفة للحياة في سورية الشمالية خلال القرون الميلادية الأولى .

ولا ريب أن دراسة الشروط الاجتماعية والاقتصادية لهذه المنطقة دراسة عميقة متصلة مع جغرافيتها وتاريخها يمكنها أن تفسر أوابدها ، وتشرح السبب في ازدهارها البنائي العظيم . وقد فعل ذلك السيد م . غ . تشالنكو ونحن شاكرون له ، وللسيد هـ . سيريغ اطلاعنا على هذه الدراسه قبل نشرها .

وقد استطعنا أن نتعرف خلال زيارتنا على أشياء ما كانت لتخطر ببالنا لولا قراءتنا ما تضمنته الدراسه المذكورة من أبحاث قيمة .

صفات بعض المواقع الأثرية

وتحوي منطقة الهضبة الحوارية التي يحدها غرباً وهدة وادي العاصي وعفرين ، عدة سهول خصبة . وليست هي بمجموعها إلا مساحة واسعة من الجبال ذات الصخور القديمة المؤتكلة المتفوهة الجرداء . وتتوزع المواقع الأثرية على ذراها أو على سفوح منحدراتها . ولها صهاريج كانت تستمد المياه اللازمة لحاجات سكانها منها . ويمكن تقسيم هذه المواقع الأثرية الى ثلاث مجموعات . الاولى شمالية في جبل سمعان ، والثانية متوسطة في جبل باريشا وجبل العلا ، والثالثة جنوبية في جبل الزاوية أو جبل ريحا . وتختص بعض المواضع بكثافة المنشآت القديمة فيها ، حتى ان الأطلال تظهر في كل ناحية من نواحيها .

وقد تكاثفت هذه المنشآت خاصة حول الأديرة . ولا يخفى

(١) ان أهم أطلال هذه المنطقة هي بقايا منشآت دينية عدة ، فيها الكنائس والصوامع والاديرة وغيرها ، التي ازدهرت في العهد السوري المسيحي قبل الاسلام . وقد أثبت كثير من التحريات الأثرية ان العرب لم يهدموا شيئاً من المنشآت الدينية المسيحية ، إلا ان اعتناق سكان الشام للدين الاسلامي هو الذي صرف الناس عنها ، فهجرت هي والمنشآت المدنية الأخرى الملحقة بها وتحولت الى اطلال مع مرور الأزمان .

أن حياة التنسك انتشرت انتشاراً عظيماً في سورية بصورة مبكرة ، وشيدت لسد حاجاتها أبنية واسعة . وقد كان الدير قديماً الى وظيفته الدينية مركز استثمار زراعي ويحوي أبنية متعددة ، كما هو الأمر في البربج وفي دير الترمانين . كما أنه كان أحياناً مركزاً للحج تنشأ حوله الفنادق والأسواق والحانات اللازمة لحاجات الجماهير شأن أديرة قلعة سمعان ، ودير سمعان موطن ذكرى القديس سمعان المشهور .

وقد اجتمعت المنشآت أيضاً حول بعض المدن بما في ذلك من أبنية زراعية ، ومزارع ، وكنائس ، ومعاصر للزيت ، وامتدت أحياناً الى مسافات واسعة كما كان ذات حول (باموقا) و (قرقبيز) و (بهيو) . أو أنها ألفت قرى ذات بيوت كثيرة ، شأن (رفادة) و (كفرنابو) ، أو أنها شكلت عدة منازل متواضعة فقط كـ (قاطورة) و (تقلة) . ومها يكن فيمكن التعرف فيها جميعاً على بقايا الكنائس بين أنقاض أبنيتها المختلفة . كما يمكن التعرف على نماذج متعددة من الابنية الجنازية حولها مباشرة .

ومن هذه المواقع الأثرية موقعان يمتازان بمساحتيها الواسعتين ، واختلاف الأبنية التي يحويانها ، وهما (البراد) في الشمال ، والبارة في الجنوب . أما البراد فانها مدينة صغيرة واقعة على هضبة جرداء تؤلف الجزء الشمالي من جبل سمعان . وقد كانت مركزاً إدارياً وتجارياً لمنطقة واسعة . وقد تألفت هذه المدينة حول نواة قديمة (تتضمن بقايا حامات يرجع عهدها الى القرن الثالث الميلادي) . وفيها كنيستان يرجع عهد الأولى منها الى سنوات (٣٩٠ - ٤٠٢) ، وعهد الثانية الى سنة (٥٦١) . وقد ازدهرت هاتان الكنيستان خاصة في القرن السابع . ثم ان البارة تؤلف أيضاً مساحة معمورة واسعة ، طولها ثلاثة كيلومترات ، وعرضها كيلومتران . وكانت مركز جبل الزاوية وتتصف بكونها مدينة زراعية وصناعية (تشتهر بانتاج الزيت والخمور) . وبين انقاضها المنهارة والمجمعة على بعضها بحيث يصعب تفريقها يمكن تمييز بقايا عدة كنائس ، ومدافن غنية تعلوها سقوف هرمية ، ويرجع تاريخها إلى القرن السادس .

وقد أبان م . غ . تشالنكو وجود وحدة في البناء في كل أرجاء هذه الهضبة الحوارية . وهذه الوحدة تظهر في تشابه مواد البناء المستعملة وتماثل نحت أحجارها ورصف هذه الأحجار . وتمتد هذه الوحدة على الزخارف المتشابهة التي وفق بينها وبين الاشكال الجديدة للأبنية . مما يدل على أن ورشات العمال الذين شيدوها كانت تتنقل بين مكان وآخر فتترك هنا وهناك آثاراً للطرق والأساليب التي كانت تحتذيها في اعمالها .

ويؤيد هذا الرأي عدد كبير من الأبنية التي تختلف أنواعها كما تختلف أهميتها . ونود أن نميز بينها مجموعتين تفوقان غيرهما بصنعها وبأهميتها المنقطعة النظير . وأولاهما كنيسة القديس سمعان (قلعة سمعان) ذات الشكل الصليبي التي شيدت في الربع الثالث من القرن الخامس حول العمود الذي عاش عليه هذا القديس سبعة وثلاثين عاماً من حياته ، والذي ظل بعد وفاته مدة طويلة محجة مشهورة يقصدها الحجاج المسيحيون . وتعد بقايا هذه الكنيسة أعظم وأضخم أطلال مسيحية في الشرق بما لها من تخطيط فريد في نوعه ، وتركيب علمي في قسمها المثمن الاوسط وما في هذا القسم من أقواس مدورة وما لحنيته وواجهته الجنوبية من نسب بديعة ، وما لواحقه كـكنيسة التعميد ، ولأبنية الدير الاخرى من أثر يساهم في جعل هذه المجموعة التي لامثيل لها أعظم أطلال مسيحية وأضخمها في الشرق .

أما المجموعة الثانية فانها تتألف من كنيسة قلب لوزة ، وهي أقل شهرة من الاولى بسبب صعوبة الوصول اليها ، وانعزالها ضمن صحن واسع كأنها معبد وثني قديم على ذروة جبل العلا . وهي من آخر القرن الخامس . ولواجهتها التي تحيط بها برجان ، ولرأسها المزين بالأعمدة ، ولأقواسها الكبيرة التي تفصل بهوها الاوسط عن بهويها الجانبيين ، ولنسب حنيتها الضخمة ، ولاتساق زخارفها المنحوتة ، ولتوزع هذه الزخارف توزعاً دقيقاً كافياً ، جمال قوامه التوازن والكمال ، ولا يتوفر هذا الجمال إلا في الآيات الفنية الرائعة .

عودة الحياة الى الهضبة الحوارية

وتدل كثرة الاطلال في هذه المساحات الشاسعة سواء أكانت في جوار السهول الخصبة أم في الهضاب الصخرية الخالية من المياه ، على أن سكانها القدماء الذين زالوا كانوا كثيري العدد ، وانهم كانوا يلجأون الى بناء الصهاريج ، ليستفيدوا مما يجتمع فيها من مياه . الا أن الصهاريج لا يمكنها وحدها أن تفسر رخاءها القديم العظيم . ويحق لنا أن نتساءل عن وسائل العيش التي كانت تكفي سكانها .

وقد ظن بعضهم أنه كان لديهم كثير من الاراضي الزراعية الصالحة ، وأن هذه الاراضي زالت لما قطعت أشجارها واستؤصلت تماماً ، مما أدى الى تغير شروط الحياة في تلك المنطقة . إلا أن المسيو تشالنكو يخالف هذا الرأي في كتابه الذي ذكرناه ، ويعلل ذلك بمحادثة بسيطة يمكن أن تكون أصح من التعليل السابق .

إذ ظهر أن سكان الهضبة الحوارية القدماء كانوا يعيشون من أشجار الزيتون بالدرجة الاولى، ثم من الكروم بالدرجة الثانية. وتدل على ذلك وفرة عدد المعاصر التي وجدت في تلك المواقع الأثرية. وما زالت هاتان الزراعتان ممكنتين ضمن الشرائط الحالية للمنطقة ولاقليمها. ولم يتغير فيها الا الشرائط السياسية والاجتماعية التي أدت الى زوال سكانها. وفي الواقع أن الاتربة الزراعية المجتمعة في الاخاديد الصخرية لا تكفي لتغذية سكان قرية ما اذا زرعت حبوباً. غير انها كافية لتأمين رخائهم، اذا زرعت أشجاراً مثمرة، ثم أن الاكتفاء بزراعة الزيتون له مقتضيات ومنها تأمين انتظار الاستثمار الفعلي مدة طويلة يتطلبها نمو الاشجار، منها المبادلات التجارية اللازمة لتصريف المنتجات وضرورة استبدالها بالحاصلات الضرورية الاخرى. وتتطلب هذه الشروط زمناً طويلا من السلام والامن، وهذا ما تأمن سابقاً في العهد الروماني وفي العهد الحاضر منذ مدة قليلة[1]. وفي الواقع يمكننا مشاهدة الهضبة الحوارية اليوم، وقد بدأت تقطن من جديد بفضل زراعة الاشجار المثمرة.

على أن لهذه الحادثة تأثيراً كبيراً على مصير الاوابد القديمة.

قضايا اليوم: المحافظة على الاوابد

وذلك لان سكن الهضبة الحوارية يضيف صعوبة جديدة الى المصاعب الناشئة عن توزع الاطلال، وعن طبيعتها الخاصة. وفي الواقع يجب المحافظة على هذه الاوابد وأن يؤخذ بعين الاعتبار توزع مواقعها الأثرية على مساحة تزيد على مائة وأربعين كيلومتراً وتصعب فيها المواصلات. كما يجب أن نحسب حساب شكلها، لانها أكوام عظيمة من الاحجار الضخمة، فيها الكنائس التي تحدثنا عليها. ثم أنه يجب أن يعرف أن السكان الذين يأتون لسكنى هذه المنطقة يفضلون الاقامة في الاطلال، ويحتلون الابنية القديمة، ويصلحون الصهاريج الموجودة فيها. ثم انهم يستخدمون الاحجار الأثرية القديمة المنحوتة التي لا تكلفهم الا عناء نقلها من مكان الى آخر، وتوفر عليهم مشقة قطعها ونحتها.

ولا شك اننا لا نخاف اليوم من إمكانية تهديم آبدة كبيرة من هذه الأوابد كما جرى ذلك سابقاً في كنيسة (الترمانين) التي زالت تماماً. ويجب أن يعلم أن مديرية الآثار العامة اتخذت تدابير سريعة وحازمة في هذه المنطقة وأجرت كثيراً من أعمال الترميم (خاصة في قلعة سمعان)، وجعل مفتشوها ومراقبوها وحراسها يراقبون الاطلال، ويلتجئون إلى كل الطرق التي تؤدي الى المحافظة عليها، ومن ذلك كتابة الضبوط، وتحويل المخالفين الى الحاكم. ولا ريب أن هذه التدابير ناجعة ويمكن زيادتها. إذ لا يجب أن يفكر أنها كافية. غير أنه من المستحيل أن يحافظ على كل الاوابد، وأن يعين حارس على كل موقع أثري، وأن يدفع عن الآثار كل سيئات عودة السكان الى هذه المنطقة وهي حادثة مسرة للغاية. وفي الواقع اننا نرى أمام مثل هذا الموقف أن يقتصر على تقوية وإعادة انشاء أحسن الابنية الأثرية التي لها أهمية معمارية واضحة، وأن تترك وشأنها الاطلال الكثيرة التي ليست الا جوانب من جدار أو كتل من بيوت منهارة.

وفي هذه الحالة يجدر أن يلاحظ شيئان مهمان.

فمن جهة يجب دراسة هذه الاوابد ونشرها نشراً علمياً لائقاً، ويجب التنبيه إلى الفوائد العظيمة التي يقوم بها العلماء ازاء ماضي هذه المنطقة. اذ أن الأوصاف المفصلة للأطلال، وما رافقها من مخططات، وصور، وتخطيطات هندسية، ودراسات تسمح بالاحتفاظ بوضوح بذكرى هذه الاطلال التي هي ذكرى مدعوة لان تتغير ولان تزول. ويجب أن تقارن حالة هذه الاطلال الآن وحالتها لما نشر فوعه، وبوتلر دراستيهما عنها.

ومن جهة ثانية يجب أن يذكر ما يمكن أن ينشأ من تشجيع السياحة من مساعدة قيمة في استثمار هذه الاطلال. ويتيسر بسهولة تنظيم دورة سياحية تبدأ من حلب، وتستهدف زيارة كنائس قلعة سمعان وقلب لوزة، مارة على الطريق الرومانية من انطاكية الى كالسيس، والاوابد الجنازية في (دانا) و (سرمادا)، وأديرة دير سمعان والبريج، ودارة (مالوفا). وتوجد الآن طرق صالحة في قسم كبير من هذه الدورة، الا انه يلزم تحسين القطاع الذي يصل الى قلعة سمعان، وان تشق طريق صغيرة للصعود على الاقدام من سهل سلف الى قلب لوزة. ويمكن اقامة منازل للسياحة جذابة في دير سمعان في رباط من الرباطات القديمة، وفي (بالوفا) في الدارة القديمة.

فاذا وجهت السلطات انتباهها إلى الثروات الأثرية لهذه المنطقة الجبلية، فانها تكون قد ساهمت بتطورها الاقتصادي، كما تكون قد أكسبت مديرية الآثار العامة موارد هامة تتأمن من عائدات الزيارة، ويمكن استخدامها في معالجة تلك الابنية الرائعة، وفي اعادة تشييد ما تهدم منها.

---

(١) إلا أن هذا التعليل لا يفسر تماماً لماذا لم تعمر هذه الهضبة الحوارية في عهود سلم طويلة مرت عليها كالعصر الذهبي العباسي، والعهد العثماني، حيث لم تجر فيها أية حوادث عسكرية.

مصادر موجزة

ه . و . بير : الاديرة السورية ، برلين ، ١٩٢٥ ، بالالمانية .

ه . ك . باتلر : البعثة الاثرية الاميركية إلى سورية في سنتي ١٨٩٩ – ١٩٠٠ ، الجزء الثاني ، فن البناء ، وبقية الفنون الاخرى ، نيويورك ، ١٩٠٣ ، بالانكليزية .

« « « : جامعة برنستون ، البعثة الأثرية الى سورية في سنتي ١٩٠٤ – ١٩٠٥ وفي سنة ١٩٠٩ ، الجزء الثاني : فن البناء ، الجزء ب ، سورية الشمالية ليد ، ١٩٢٠ بالانكليزية .

م . دوفوغه : سورية الوسطى ، فن البناء المدني والديني ، جزءان باريس ، ١٨٦٠ – ١٨٧٧ بالافرنسية .

ه . غلوك : العمارة في طول سورية وعرضها هيدلبرغ ١٩١٦ بالألمانية .

ج . لاسوس : المعابد المسيحية في سورية ، باريس ، ١٩٤٧ (م . ت . أ ، الجزء الثاني والاربعين) بالافرنسية

ج . ماترن : المدن الميتة في سورية العليا ، الطبعة الثانية ، بيروت سنة ١٩٤٤ بالافرنسية .

ر . موتيرد و أ . بوادبار : خط حدود كالسيس ، جزءان ، باريس ، ١٩٤٥ (م . أ ت ، الجزء الثامن والثلاثون) بالافرنسية .

ج . ستريزيغوسكي : الفن المسيحي القديم في سورية ، مع دراسة تمهيدية لـ : ج . ميه ، باريس ، ١٩٣٦ ، بالافرنسية

ج . تشالنكو : القرى القديمة في سورية الشمالية ، جزءان ، باريس ١٩٥٣ (م . أ . ت ، الجزء الخمسون) .

المدن الميتة في الجنوب

حوران وجبل الدروز

في القسم الجنوبي من سورية بلاد البازلت الأسود . وفي الواقع تضفي على هذه البلاد الصخور الاندفاعية التي تملأ أرضها صفة خاصة جداً يمكن إجمالها في أن أحجارها سوداء ، وأوابدها سوداء ، وزخارف هذه الأوابد سوداء أيضاً .

وقد كانت هذه المنطقة كلها تدعى قديماً باسم (حوران) إلا أن هذه التسمية اقتصرت اليوم على قسمها الغربي الذي يفترق عن قسمها الشرقي المسمى (جبل الدروز) . ويبرز هذا التمييز مظهران متباينان لتلك الاراضي . اذ تمتد غرباً سهل واسع أفيح خصب يزرع فيه القمح والشعير . كما تمتد شرقاً جبال صخرية وعرة متألفة من اندفاعات البراكين الخامدة ، وترتفع ذراها أحيانا حتى (١٥٠٠ م — ١٧٠٠ م) . ولا يشعر المرء بهذه الارتفاعات ، لان أراضيها تعلو تدريجياً ، وتسمح لقراها أن تنتشر على ارتفاع نحو (١٠٠٠ م) .

وقد بدأت النهضة العمرانية في هذه المنطقة لما أوجد الرومان المقاطعة العربية في زمن الحاكم الروماني (كورنليوس بالما) الذي عينه الامبراطور تراجان ، سنة (١٠٦ م) . واستمرت هذه النهضة في عهد السلالة الامبراطورية الانطونية ، وفي عهد سبتيم — سيفر ، وخاصة في زمن فيليب العربي . ثم تتابعت في العهد المسيحي ، حيث كثرت الأبرشيات في حوران منذ عهد المجامع الدينية الأولى . ولما حان العهد العربي الذي بدأ سنة (٦٣٦م) توقفت هذه الحركة العمرانية نوعاً ما . إلا أن بصرى وصلخد احتفظتا بأهميتها الستراتيجية . ويعود عهد معظم أبنيتها العسكرية والدينية العربية إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين .

هذا وقد هجرت المواقع القديمة ، فلم تلبث أبنيتها أن تحولت الى أطلال .

المواقع الأثرية والاوابد في جبل الدروز

تحتل شهباء وقنوات مكانة الصدارة بين المواقع الأثرية الكثيرة التي يحويها جبل الدروز . إذ أنه توجد فيها مجموعتان واسعتان من الأبنية القديمة . وقد شيد الامبراطور فيليب العربي خلال القرن الثالث شهباء التي كانت تدعى قديماً (فيليبوبوليس) على شكل تخطيط مربع هو شكل المعسكر الروماني . وما زال المرء يشاهد فيها أبواب المدينة القديمة ، وبلاطات شارعيها الكبيرين المتعامدين ، ومسرحها الصغير ، وحماماتها ، وبعض أوابدها الأخرى . وقد أخرجت من أرضها ألواح كبيرة من الفسيفساء حفظت في متحفي السويداء ودمشق . أما قنوات التي كانت تدعى (قنطا) قديماً ، فانها تقوم في موقع ذي تضاريس متعددة وهي محاطة بالأشجار ، وأطلالها ما زالت بحالة جيدة ، ولها تأثير ساحر . ويوجد بينها مدافن غريبة ، وعدة مجموعات من الأعمدة كانت واجهات لمعابد قديمة ، ثم مجموعة كبرى من الأبنية تدعى « السرايا » ، وتتألف من أبنية رومانية ومسيحية ، يميز بينها أعمدة على جذوعها مساند كانت لمعبد روماني ، ورواق واتريوم من كنيسة ضخمة عهدها القرن الرابع ، وواجهة مزخرفة على شكل غريب لكنيسة أخرى من هذا العصر .

ويعيش سكان شهباء وقنوات الحاليون داخل كثير من هذه الأطلال . وقد هدموا بعضها واستخدموا أحجارها . ويلاحظ ذلك أيضاً في أكثر المواقع القديمة من جبل الدروز ، لا سيما

في شقا . ويوجد في هذا الموقع الأخير كنيسة ضخمة ، وقصر له واجهة غربية ، ومنزل له أعمدة . وكلها أبنية غير مألوفة وتقدم لنا نماذج عن كيفية سقف أماكن بواسطة الجسور الحجرية المرتكزة على حوامل حجرية بارزة ، وهي ميزة من ميزات فن العمارة المحلية . إلا أنه لم يبق شيء يذكر من أوابد مدينة السويداء حاضرة جبل الدروز . وكذلك فقد زال أيضاً معبد سيع الكبير ، ويكفي لأخذ فكرة عن التهديمات الأثرية التي حدثت خلال الخمسين السنة الماضية ، أن نقارن بين حال الأبنية الأثرية الحالية ، وبين حالها في صورها في الكتب التي نشرت عنها في أول هذا القرن .

الا أنه يجب أن نعترف أن الحكومة السورية اتخذت الآن كل التدابير اللازمة لايقاف هذه التهديمات . وتقوم مديرية الآثار العامة بالترميمات العاجلة ، كما أن مفتشيها يراقبون الأوابد ، ويضعون أيديهم على كل المكتشفات الجديدة ، وكذلك فان متحف مدينة السويداء يمنع تبعثر وتفرق تلك المكتشفات . وعلى الرغم من ذلك فان كثرة الآثار القديمة في هذه المنطقة ، وتبعثرها ، وصعوبة الوصول اليها يجعل حمايتها من أصعب الأمور .

كنائس ازرع

ومن اللازم أن نسترعي الانتباه هنا قليلا إلى كنيستي القديس جرجس ، والقديس هيليا ، ويعود زمن بناء الأولى الى سنة (٥١٤) ، والثانية الى سنة (٥٤٢) . وهما مهمتان في تاريخ الفن المسيحي الابتدائي ، وتوجدان اليوم في حالة مؤسفة . اذ أنهما رممتا ترميما غير فني . والأمل أن تصلحا وأن تعادا الى حالتها السابقة .

بصرى

استحالت حاضرة المقاطعة العربية الرومانية اليوم الى قرية صغيرة ، وما يزال المرء يرى فيها آثاراً من العصور القديمة والأزمنة الاسلامية والمسيحية . ولهذه الآثار قيمة فنية معمارية كبيرة وهي شاهدة على الذكريات الطويلة التي احتواها تاريخ هذه المدينة الرائع .

ويمكن رؤية أقسام المدينة التي كانت لها في العصر الروماني ومنها الشارع الرئيسي المستقيم ، وعدة أعمدة وأروقة ، وباب المدينة في طرفها الغربي ، وقوس كبير بثلاث فتحات وآثار مختلفة من حماماتها ، وأربعة أعمدة كورنثية كانت على أكبر الظن جزءاً من سقايتها .

ومن أشهر أبنيتها الأثرية أيضاً كاتدرائيتها التي بناها البطريرك جوليان سنة ٥١٣ . وهي اليوم متخربة جداً . إلا أنها تعد نموذجاً من أقدم النماذج عن بناء الكنيسة الكبيرة ذات القبة والمخطط المدور . وقد أفاد أحد النصوص المنقوشة أنه كانت لبصرى كنيسة أقدم منها بناها البطريرك أنتيباتر ، وأهداها الى العذراء في الربع الثالث من القرن الرابع . ويدل هذا النص على الدور المهم الذي لعبته بصرى في تاريخ المسيحية الاول . كما انه كانت لهذه المدينة أهمية في فاتحة عهد الاسلام . اذ يقال عن بناء فيها ، له حنية ، وواجهة غير مزينة ، إنه من بقايا الدير الذي كان فيه الراهب (بحيرا) الذي حدث الرسول العربي الكريم ﷺ عن رسالته . وقد بني مسجد مبرك الناقة فيما بعد في الموضع الذي قيل عنه إن ناقة محمد عليه السلام بركت فيه .

وهو أحد مساجد المدينة العديدة ، وله مئذنة عالية مقامة في القرن الثاني عشر على شكل مربع . وهي تمنح منظر بصرى طابعاً خاصاً . ومن مساجد بصرى أيضاً جامع عمر ، وهو كبير وبحالة جيدة ، ومسجد فاطمة ، وله مئذنة بأبعاد رشيقة جداً . ومن أوابد هذه المدينة أيضاً مدرسة جميلة بجانب جامع مبرك الناقة يقول عنها ج . سوفاجة إنها من أقدم مدارس بلاد الشام . وهي تؤلف مع هذا المسجد مجموعة بنائية هامة .

ونأسف لما أصاب هذه الاوابد من تهدم منذ فاتحة هذا القرن . والفرق ظاهر بين حالتها اليوم وما كانت عليه لما ظهرت المنشورات العلمية التي أصدرتها البعثات الأثرية الأولى في سورية . ومما زيدسوء حالتها وجود منازل القرية الحديثة بينها ، ويجب أن تخلى هذه المنازل ، كما يجب أن تقوى الاطلال وأن يعاد إنشاء ما يمكن اعادته منها . ولا نظن أن المخطط التنظيمي الجديد الذي صدقته السلطات العامة ، آخذ بعين الاعتبار هذه المقتضيات ، أو انه ينص على ضرورة تحسين حال أوابد المدينة الرئيسية .

ولزام علينا الآن أن نتحدث قليلا عن المجموعة الأثرية الضخمة المؤلفة من المسرح الروماني والقلعة العربية . فهاتان العمارتان على جمال واحد ، وهما اختان ، ويتميز منها خاصة السور المبني في القرن الثالث عشر بأبراجه المربعة ، وصفوف أحجاره ذات الوجوه البارزة . وهو يحيط بالمسرح إحاطة السوار بالمعصم . وهناك عنابر القلعة المرتفعة على ثلاث طوابق فوق صحن المسرح . وقد قامت مديرية الآثار العامة مؤخراً بأعمال مهمة لاظهار درجات المدرج ، وأبنية منصة التمثيل . ونعتقد أن عليها أن تخطو خطوة جريئة أخرى وأن تهدم المكعب الضخم الذي بني داخل المدرج دون أن يكون له أي شيء من الأهمية ، وعندئذ يمكن

إظهار هذه الآبدة القديمة العظيمة إظهاراً تاماً ، وذلك مع المحافظة على الأقسام المهمة من القلعة الاسلامية . وفي الواقع ان مسرح بصرى الروماني هو من أكبر وأجمل ، وأكمل المسارح الرومانية الباقية . وهو يقدم بتركيب قبابه الحنية التي تحمل درجات المدرج ، وبوضع أدراجه الصغيرة التي تصل بين هذه الدرجات ، وبزخارف منصته البديعة ، صفات خاصة نادرة . كما ان أبراج القلعة العربية تعد من اجمل آيات فن العمارة العسكرية في القرون المتوسطة . لهذا فعوضاً أن تسيء كل من هاتين العمارتين الواحدة إلى الاخرى ، كما هو الامر حالياً ، يمكنهما ان تحسنا معاً ، وان تقدما مشتركتين للزائرين لذة سياحة منقطعة النظير .

ويجب أن تعرّف منطقة بصرى وجبل الدروز وأن يوجه اليها السائحون ، لسهولة الوصول اليها من دمشق . ويمكن اقامة بيت للسياحة في داخل قلعة بصرى ، كما يمكن أن تحسن شروط الاقامة في السويداء مما يجعل زيارتها سهلة كل السهولة .

مصادر موجزة

و . إ . برونو . و أ . ف ودوماز يوسكي المقاطعة العربية ، الجزء الثالث ، ستراسبورغ ، ١٩٠٩ ، بالألمانية .

هـ ك . بتلر : البعثة الأثرية الأميركية لسورية ، في سنتي ١٨٩٩ - ١٩٠٠ ، الجزء الثاني ، فن العمارة والفنون الأخرى ، نيويورك ، ، ٩٠٣ . بالانكليزية

ج . و . كروفوت : كنائس بصرى ، لوندرة ، ١٩٣٧ ، بالانكليزية .

م . دوفوغة : سورية الوسطى ، فن البناء المدني والديني ، جزءان ، باريس ١٨٦ - ١٨٧٧ بالافرنسية

و . ديو وف . ماكلير : رحلة أثرية الى الصفا وجبل الدروز ، باريس ١٩٠١ ، بالافرنسية

ج . لاسوس : المعابد المسيحية في سورية . . . باريس ١٩٤٧ (م . ا . ت . الجزء الثاني والأربعون) بالافرنسية.

ج . ماسكل : جبل الدروز ، بيروت ، ١٩٤٤ ، بالافرنسية

غ . ري : رحلة الى حوران ، باريس ، سنة ١٨٥٨ ، بالافرنسية

سليمان المقداد : بصرى ، الطبعة الثانية دمشق ، ١٩٥١ ، بالعربية .

د . سوردبل : ديانات حوران في العصر الروماني ، باريس ١٩٥٢ ، (م . أ . ت . المجلد الثالث والخمسون) ، بالافرنسية

خاتمة

ان البحث الذي شرحنا عناصره لا يستدعي أية خاتمة . اذ أننا لم نستهدف كما نصت عليه مهمتنا الا أن نتحدث بحياد ودقة عن الوضع العام والخاص للأوابد التاريخية والمواقع الأثرية في سورية . أي أننا حاولنا أن نرسم عنها صورة صادقة كل الصدق .

ومع ذلك فقد توجب أن نلح خاصة على تعدد وتعقد القضايا التي تضعها حماية الآثار وتحسين أوضاعها أمام سورية ، كما يظهر ذلك في الملاحظات التي أبديناها . وفي الواقع ان هذه القضايا مختلفة بحسب اختلاف المناطق السورية ، وتاريخ الابنية الأثرية ، وطبائع هذه الأبنية وحالتها الحاضرة ، والجو الذي توجد فيه .

في المدن السورية الكبرى التي تتحول وتنمو نمواً كبيراً كدمشق وحلب يجدر توجيه الانتباه نحو الاهمية التي تقدمها الأوابد التاريخية للجيل الحاضر . ويجب أن تؤخذ الاهمية البديهية لهذه الأوابد بعين الاعتبار في المخططات التنظيمية التي تحاول أن تحافظ عليها وتوجد حولها جواً ملائماً لها ، بعد أن يحسب حساب أبعادها ، وصفاتها ، وأساليب بنائها . ولن تكون هذه الاوابد في أية حالة من الحالات حواجز دون اتساع مدينة ما ، بل انها زينات المدن اذا جعلت في مناظير الشوارع ، ووفق بين معانيها الثقافية ، ومقتضيات الحياة الحاضرة . ثم انه يجب العمل على ترك الأوابد للغايات التي أنشئت من أجلها ، أو تخصيصها لغايات جديدة لا تتنافى مع الغايات الاولى ، بحيث أنه يجب أن يظهر بوضوح لدى كل الناس أنها ماتزال وان كانت منحدرة من الماضي ، ذات فائدة واضحة . أي أنها يجب أن تشترك فعلياً بحياة المدينة .

أما خارج المدن فالصعوبات متأتية عن كثرة الأوابد والمواقع الأثرية وشدة اختلافها وتوزعها . اذ ان بعض مجموعات الأطلال الكبرى كتدمر ودورا مفصولة عن المدن المأهولة بمئات من الكيلومترات . وكذلك فان بعضها الآخر كأطلال سورية الشمالية وجبل الدروز كثيرة جداً لدرجة يصعب حتى على المختصين احصاؤها . وأخيراً فان قسماً منها كقلاع الصليبيين ضخم للغاية وتتطلب العناية بها مبالغ باهظة جداً . ويضاف الى ذلك كله ما تنجلي عنه الحفريات ، فيزيد عدد الاوابد السورية زيادة محسوسة كل عام .

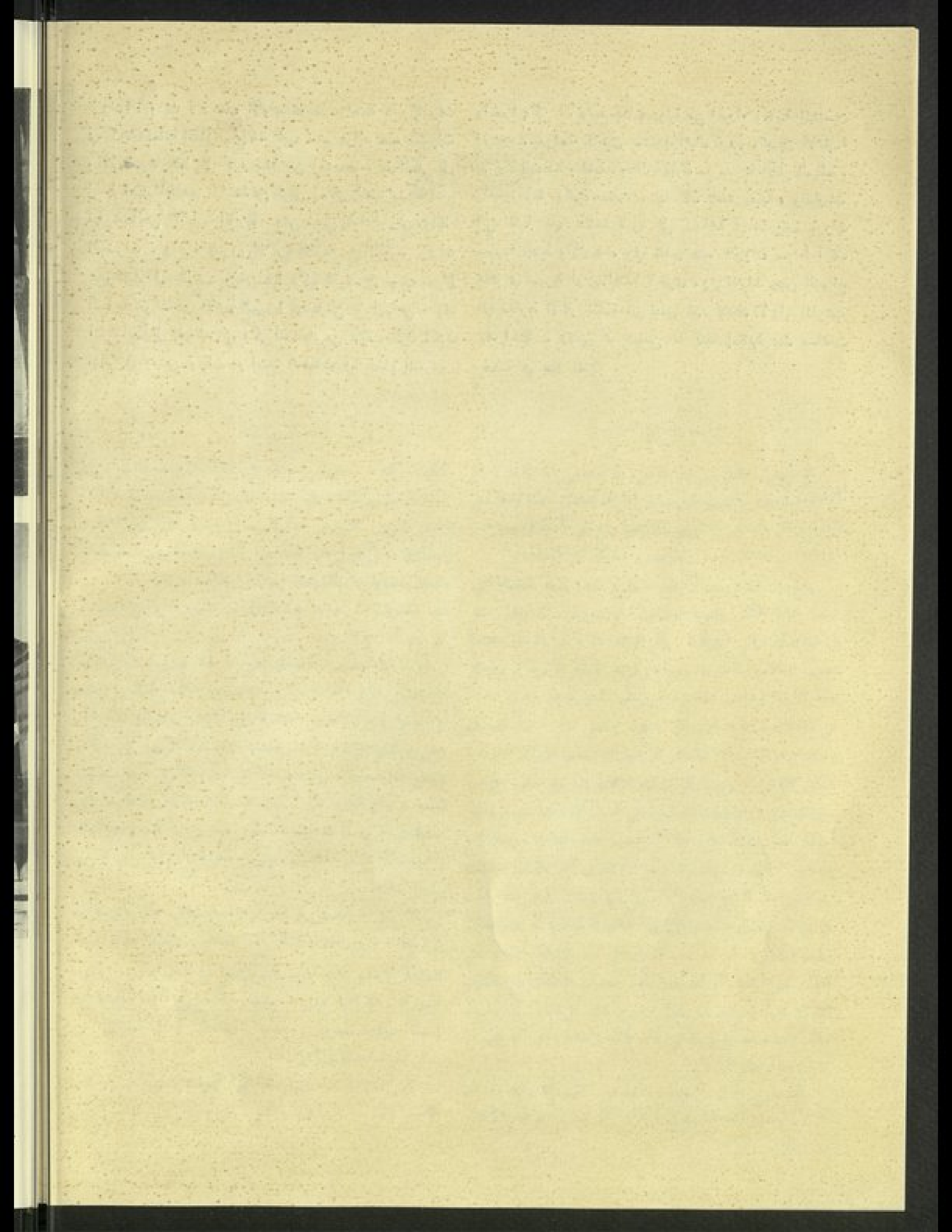
وقد امتدحنا مراراً خلال تقريرنا هذا مديرية الآثار العامة على الشكل الذي استطاعت به أن تنهض بالأعباء الكثيرة الملقاة على عاتقها ، والناشئة عن المحافظة على الأوابد والمواقع الاثرية ، وعن مراقبتها وتنفيذ برنامج ضخم للترميمات الأثرية كل سنة ، وتنظيم المتاحف ، وتشجيع الاكتشافات الأثرية ، والنشرات العلمية . وفي الواقع انها تمكنت بوسائلها الخاصة والمساهمات التي استطاعت اثارتها أو تشجيعها أن تقوم بعمل يجدر أن توضح قيمته وأهميته ، كما يجدر أن يبين فهم الحكومة السورية التي تقدم اليها ما تحتاجه

ان سورية تخصص للعناية بآثارها مبالغ هامة بالنسبة الى مواردها ، ويبرر ذلك قيمة هذه الآثار . وتفسر هذه القيمة العظيمة الاهتمام الذي تثيره هذه الآثار في العالم ، وراء الحدود السورية . كما أنها تجعل مشروعة رغبة مديرية الآثار العامة أن تصبح جهودها مفهومة ومدعومة . وقد أشرنا الى الوسائل التي يمكن أن تساعدها في أعمالها .

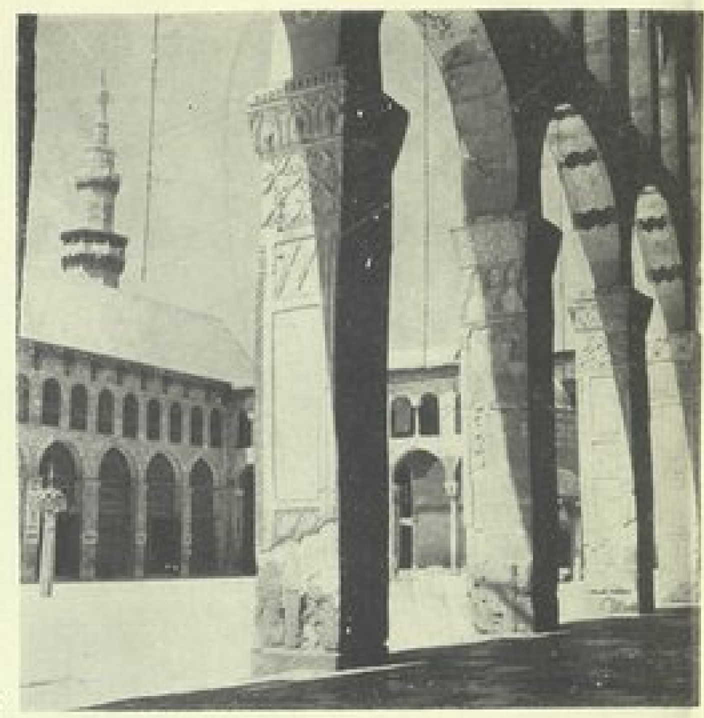
ومن ذلك الاهمية التي نعلقها على النشرات العلمية التي توصف الأوابد وتشرح خصائصها وتقدم لكل علماء العالم مواضيع قيمة

للدراسة . وذلك لان هذه الأوابد تدخل بواسطة هذه النشرات في كنز الانسانية الثقافي . ثم انه يجب تعميم فوائد هذه النشرات وعدم قصرها فقط على عدد صغير من المختصين ، بل السعي الى إيقاظ اهتمام الجماهير الواسعة عن طريق إصدار كتب مشوقة تعمم فيها خصائص الأبنيــة الأثرية . وعن طريق إقامة المعارض ، والقاء المحاضرات ، وايجاد الدروس الأثرية اللازمة في المدارس . ثم انه يجدر القيام في خارج سورية بدعاية ذكية قادرة على توجيه حركة السياحة نحو المناطق الاثرية السورية تفيدها من كل النواحي . وقد أشرنا أيضاً الى الفوائد التي يمكن أن تنجم عن تأليف لجان تكون مهمتها في دمشق وحلب ، نصح السلطات في قضايا العمران .

وأخيراً يمكن أن توجه بعثات دولية من الخبراء وخاصة المهندسين المرممين ، لدراسة تفاصيل مشاريع أعمال ترميم وتحسين الأبنيــة الأثرية الضخمة والهامة ، وذلك بالتعاون مع مديرية الآثار العامة . وأخيراً فاننا نكون سعداء ، اذا كان عملنا مفيداً ، والمعلومات التي قادنا اليها تحقيقنا قادرة على المساهمة في التعريف بثروات سورية الفنية والأثرية ، وفي تقدير هذه الثروات سواءاً أكان ذلك في سورية أو في البلاد الاخرى ، وفي تقديمنا بعض النصائح الى مديرية الآثار العامة التي تعمل بجهد لانقاذ الأوابد التاريخية ولدراستها . ونتمنى أن يتضمن ما كتبنا إمكانية بعث مساهمات خصبة في هذا المضمار .















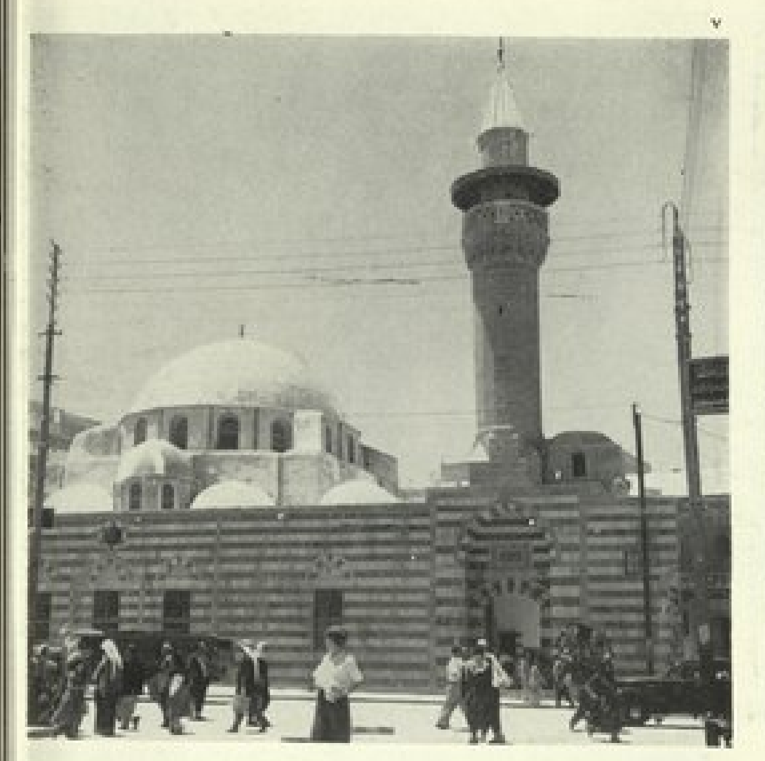


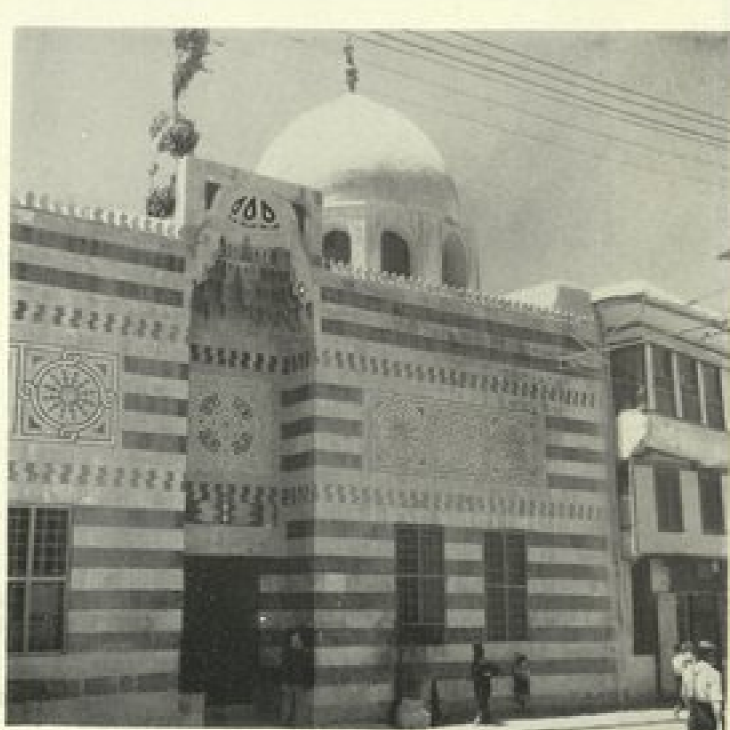
١ - دمشق : المسجد الأموي ، الرواق الشمالي .
٢ - « : « « ، الغربي .
٣ - « : « « ، الغربي والفسيفساء .
٤ - « : « « ، الفسيفساء .

٦



٧





٨

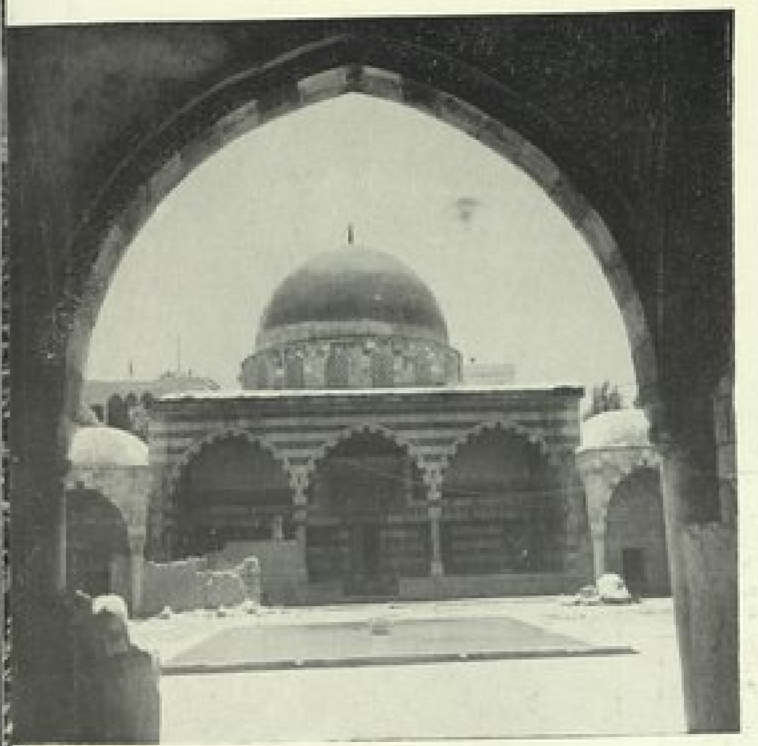


٩

٦ – دمشق : مقبرة الباب الصغير .
٧ – » : جامع درويش باشا .
٨ – » : المدرسة الصابونية (١٤٦٤) .
٩ – » : المدرسة الزكية (١٢٢٤) .



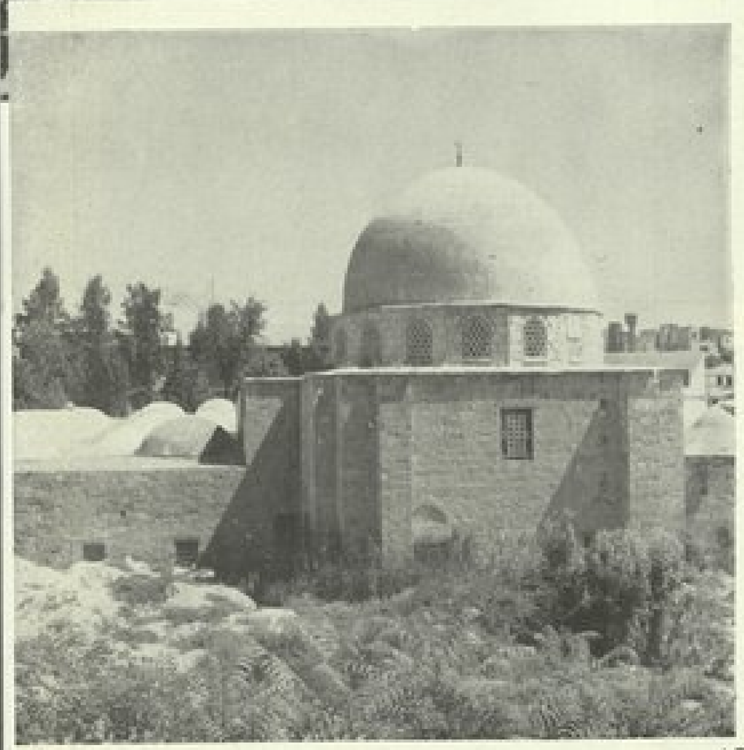
١٠



١١

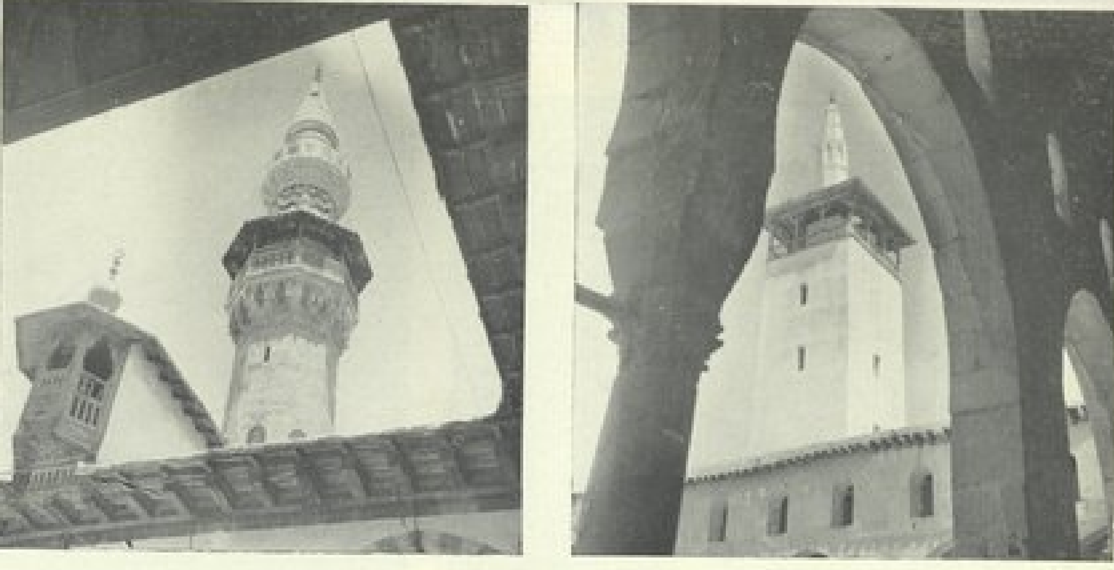


١٢



١٣

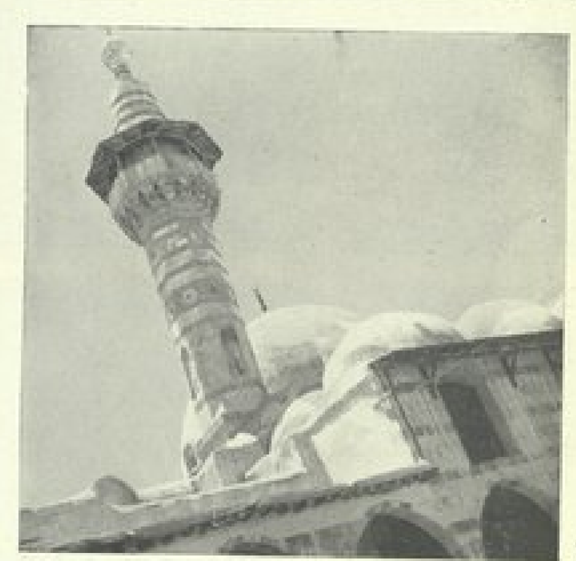
١٠ – دمشق : المدرسة السليمانية .
١١ – « : « السليمية .
١٢ – « : خان أسعد باشا (القرن الثامن عشر) .
١٣ – « : المدرسة السليمية (١٥٦٦) .



١٥ ١٤



١٧



١٦



١٩



١٨

١٤ — دمشق : جامع المظفري («الحنابلة»: ١٢٠٢-١٢٠٣) ، المئذنة .
١٥ — « : « الشيخ محيي الدين (١٥٦٨) ، المئذنة .
١٦ — « : « المرادية ، المئذنة .
١٧ — « : « منجك (١٣٦٨) ، المئذنة .
١٨ — « : مئذنة الشحم (١٤٧٠) .
١٩ — « : جامع جوبان (القرن الرابع عشر) ، المئذنة .

٢٠



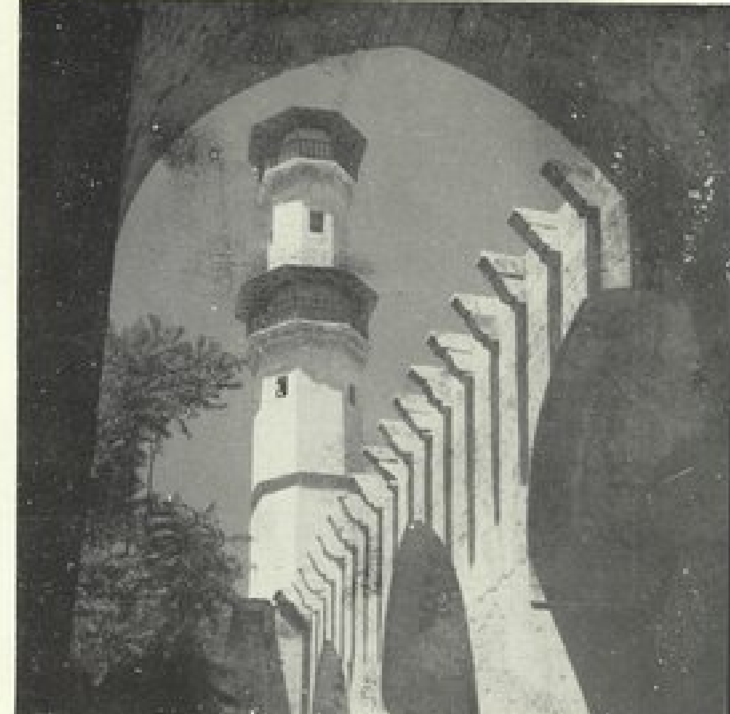
٢١



٢٢

٢٠ – حلب : القلعة ، منظر جوي .
٢١ – « : مدخل القلعة .
٢٢ – « : مآذن جوامع متعددة .

٢٣



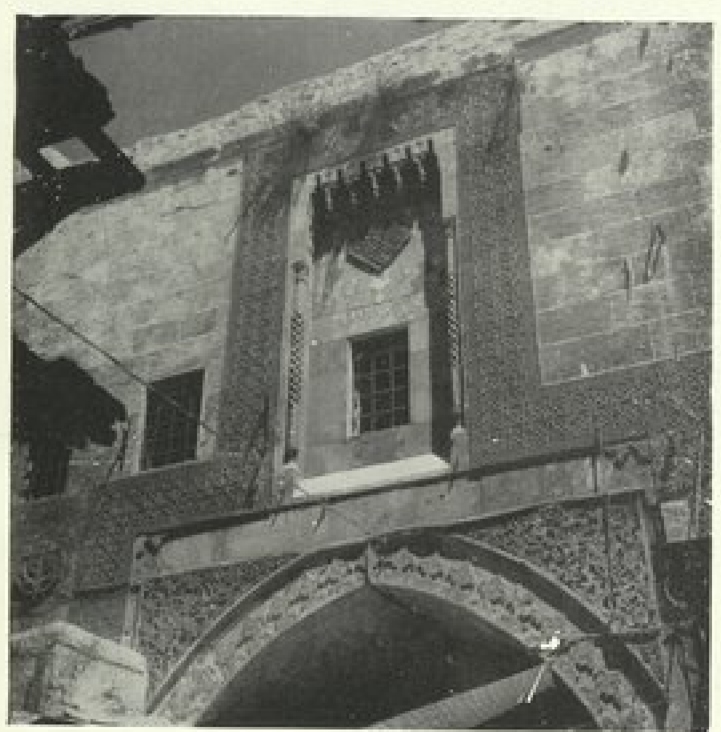
٢٤



٢٥



٢٦



٢٣ – حلب : جامع الطروش .
٢٤ – « : بيمارستان أرغون .
٢٥ – « : بيت أشيكباش .
٢٦ – « : خان الصابون .

٢٧







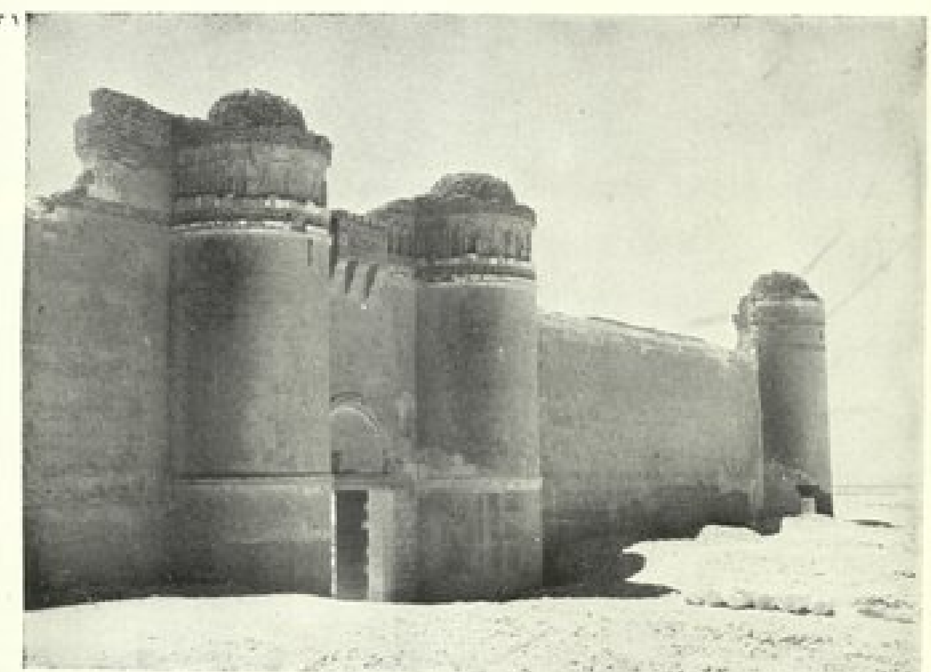
٢٩ ٢٨

٢٧ — تدمر : منظر جوي .
٢٨ — « : أعمدة حول باحة معبد بل .
٢٩ — « : مدفن إيلابيل .

٣٠



٣١



٣٢



٣٠ – قصر الحير الغربي ، منظر جوي .
٣١ – » » الشرقي ، مدخل القصر .
٣٢ – » » » ، منظر جوي .





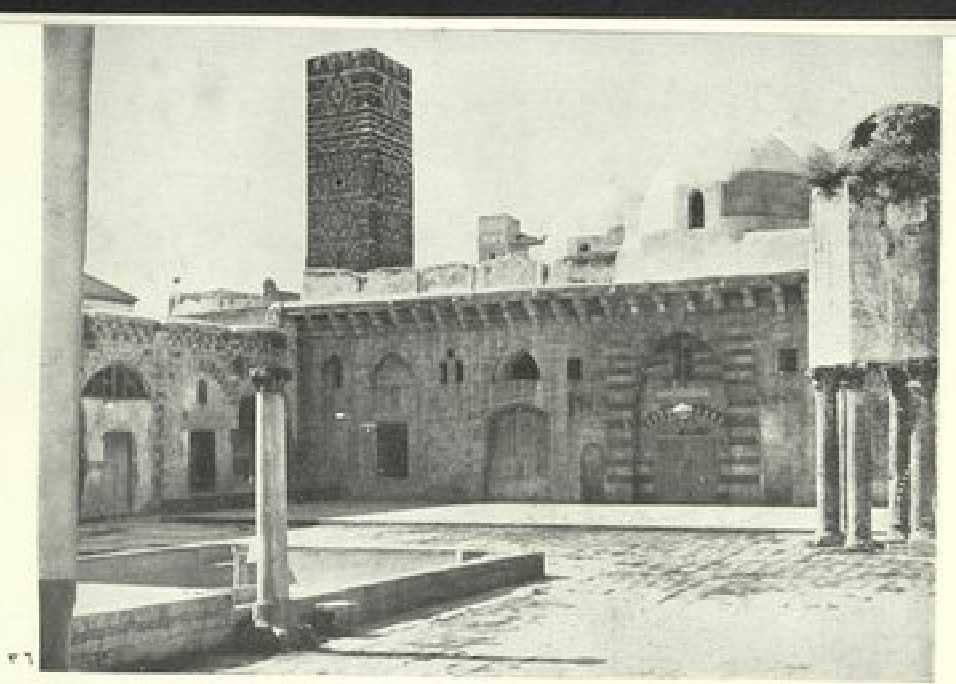




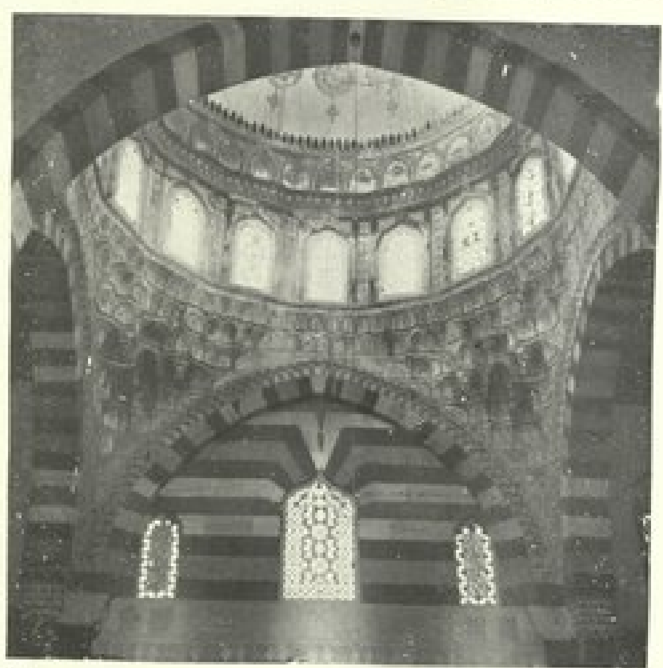
٣٥



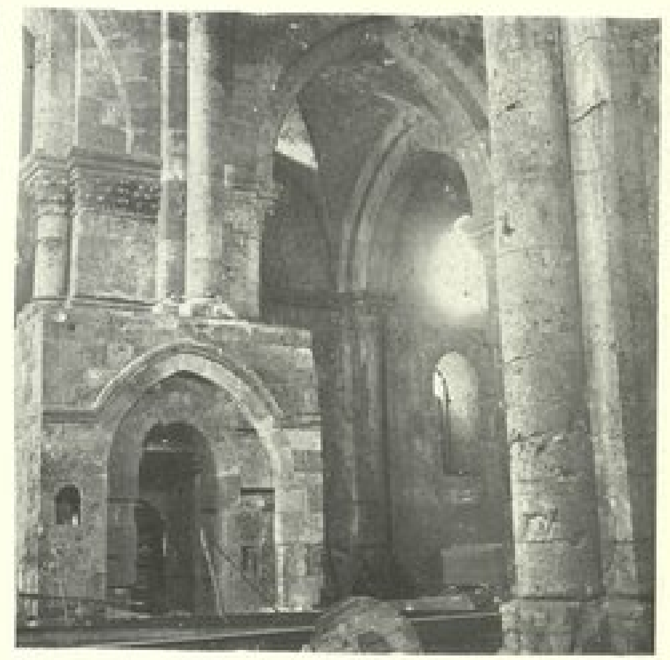
٣٣ – دورا أوروبوس والفرات ، منظر جوي .
٣٤ – حلبية ، منظر جوي .
٣٥ – الرصافة : منظر جوي .



٣٦



٣٨



٣٧

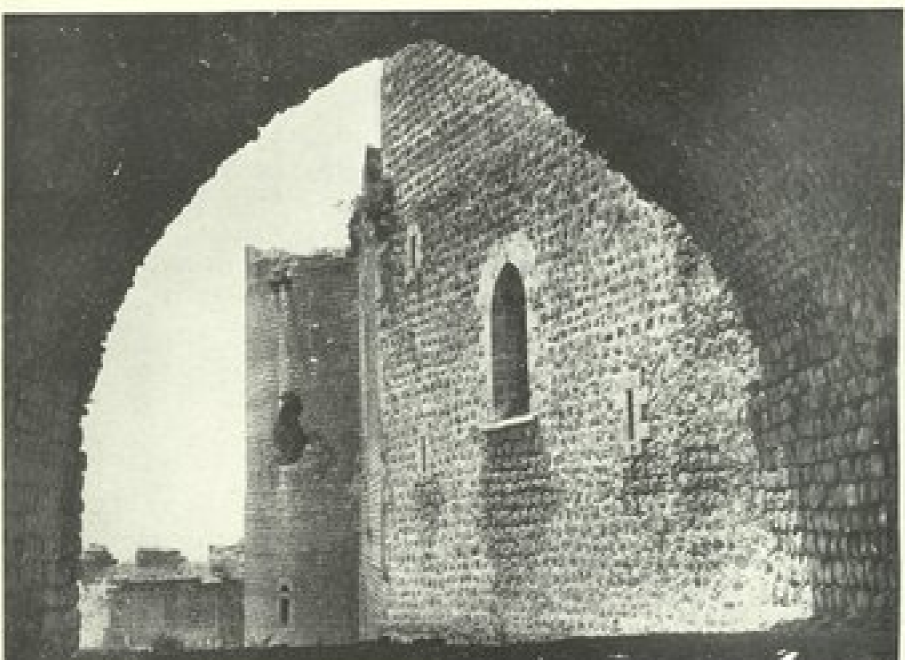
٣٩



٣٦ – حماة : الجامع الكبير .
٣٧ – طرطوس : داخل الكاتدرائية .
٣٨ – حماة : قصر العظم .
٣٩ – قلعة الحصن : منظر جوي



٤١



٤٢



٤٠ – قلعة المرقب : منظر جوي .
٤١ – » » : السور الثاني .
٤٢ – برج صافيتا : منظر جوي .



٤٣



٤٥



٤٤

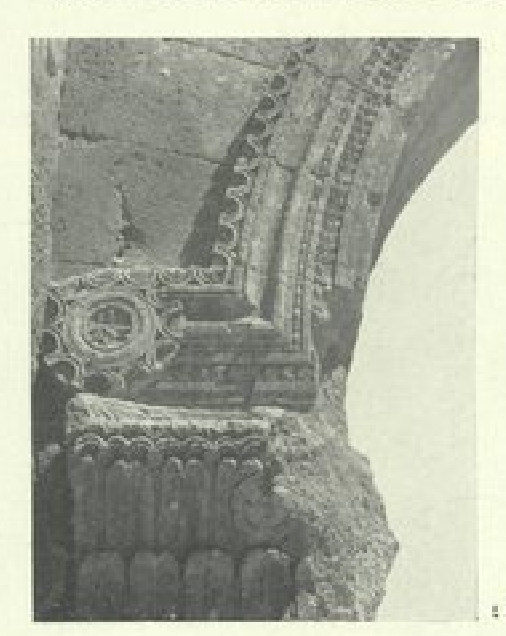


٤٦

٤٣ – قلعة سمعان : منظر جوي .
٤٤ – دير » : الكنيسة .
٤٥ – » » : الدير .
٤٦ – قلعة سمعان ، ودير سمعان (مخططات ، ع . تشالنكو) .



٤٧



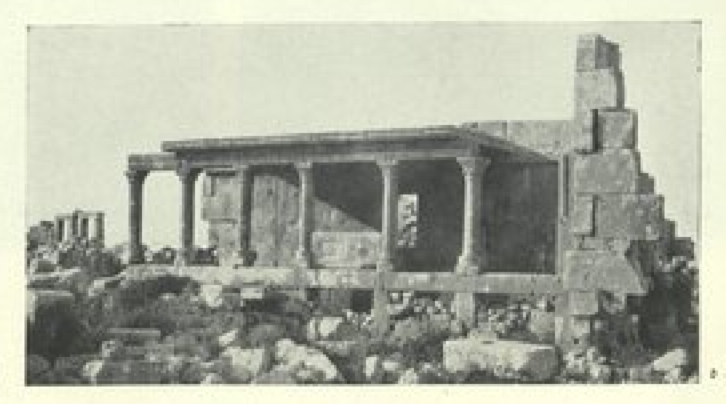
٤٩



٤٨

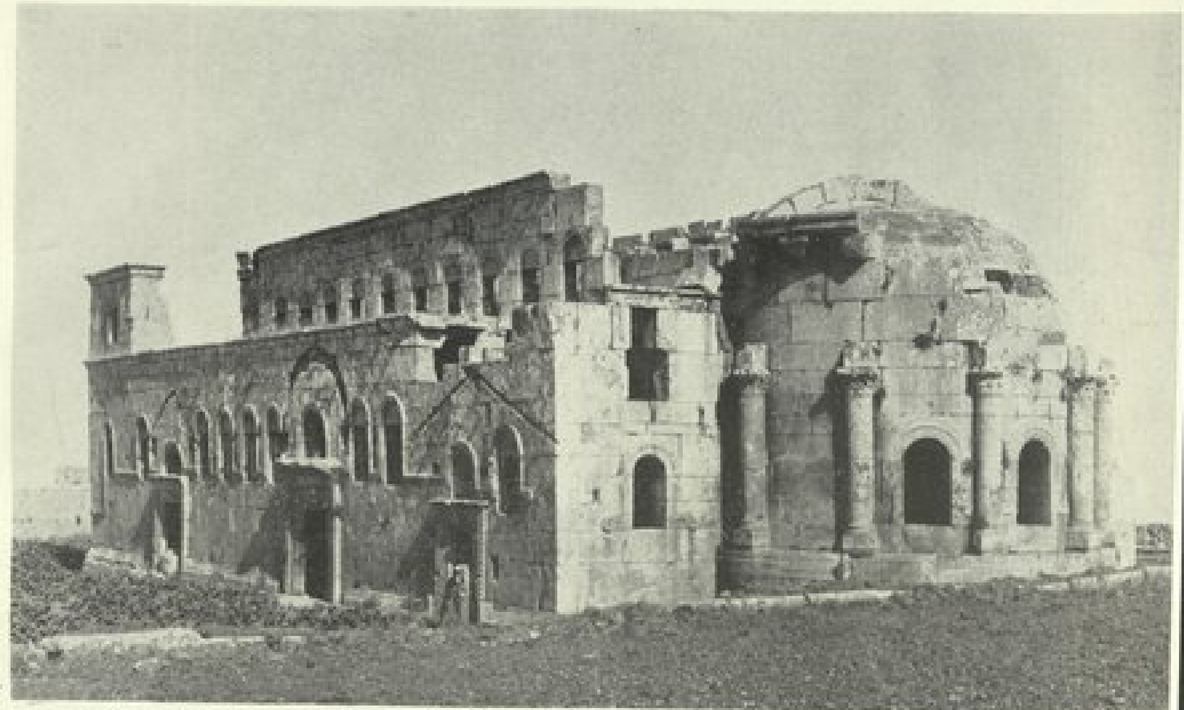


٥١

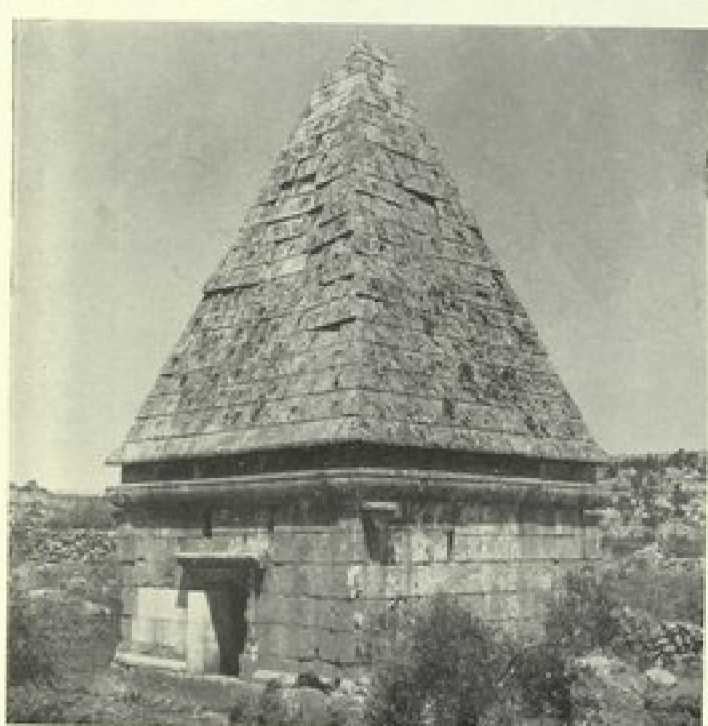


٥٠

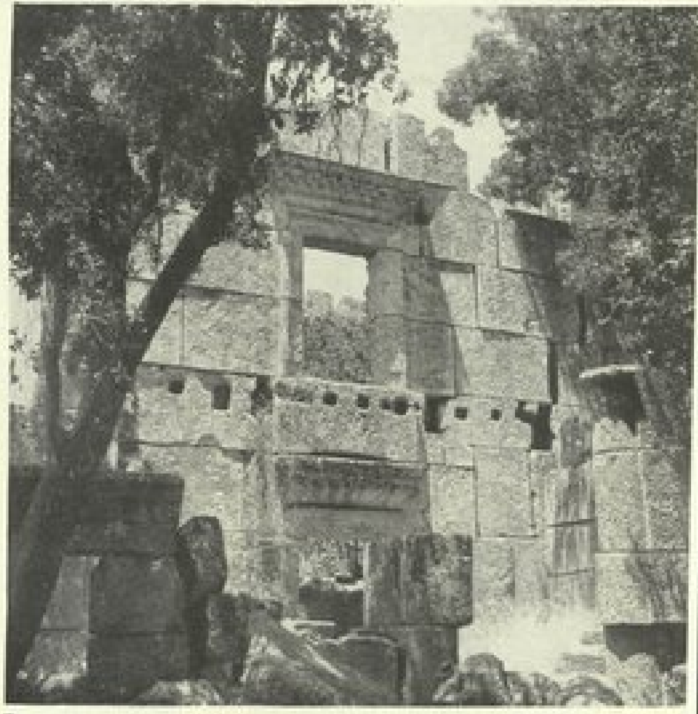
٤٧ – دير سمعان : الرباطات .
٤٨ – القديس سمعان : الوسط المثمن في الكاتدرائية .
٤٩ – قلب لوزة : زخارف الكنيسة .
٥٠ – رفادة : رواق منزل في سنة (١٩٣٨) .
٥١ – » : الرواق نفسه في سنة (١٩٥٣) .



٥٢

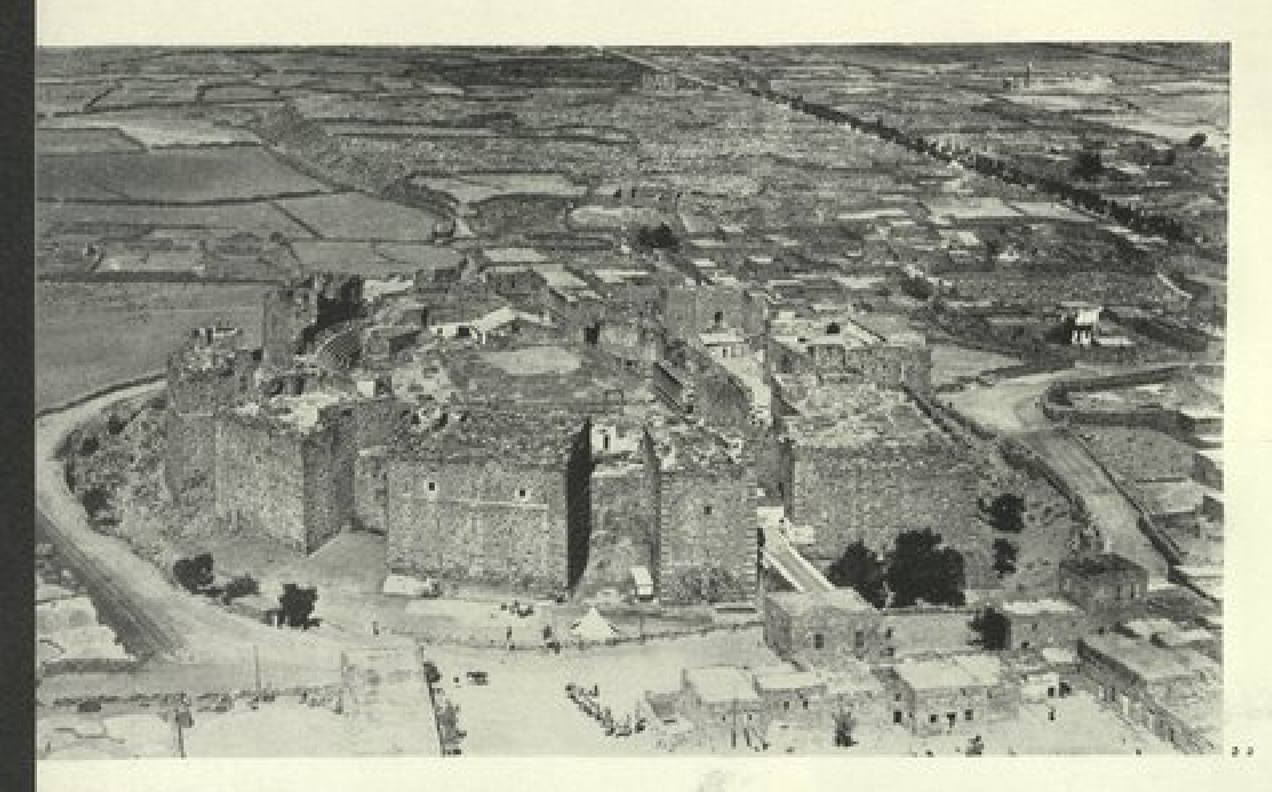


٥٤



٥٣

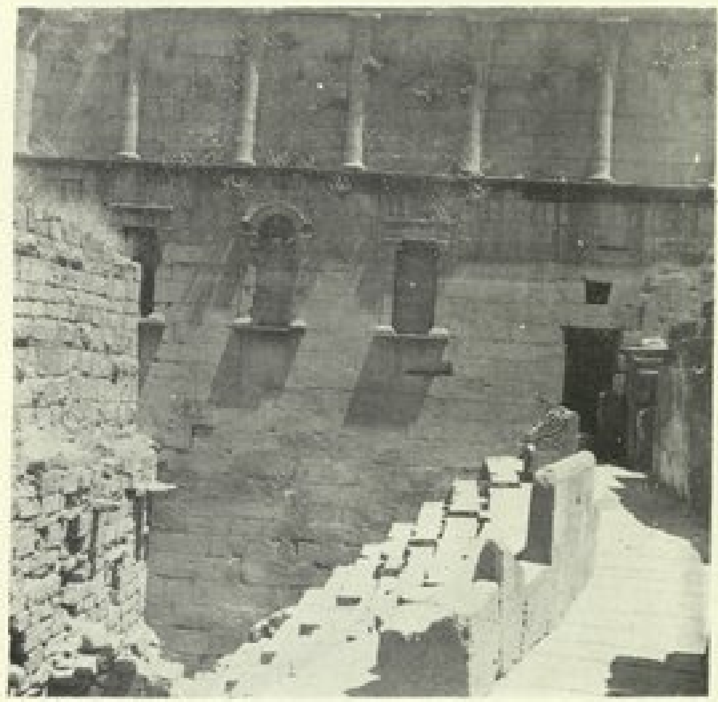
٥٢ – قلب لوزة : الكنيسة .
٥٣ – باموقا : دارة صحية .
٥٤ – البارة : مدفن .



٥٥



٥٧



٥٦

٥٥ – بصرى : القلعة والمسرح ، منظر جوي .
٥٦ – « : داخل المسرح .
٥٧ – « : داخل القلعة .

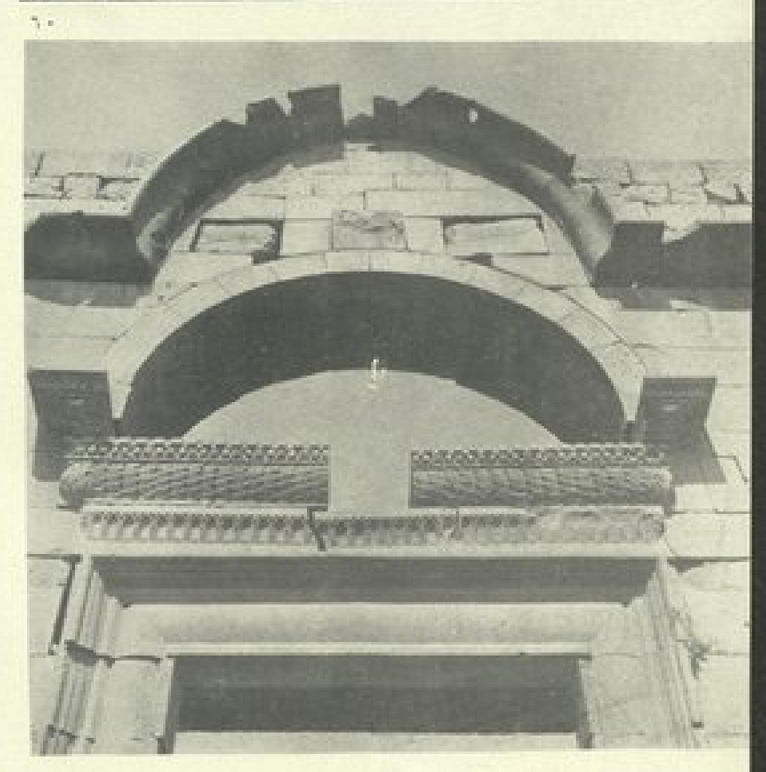
٥٨



٥٩



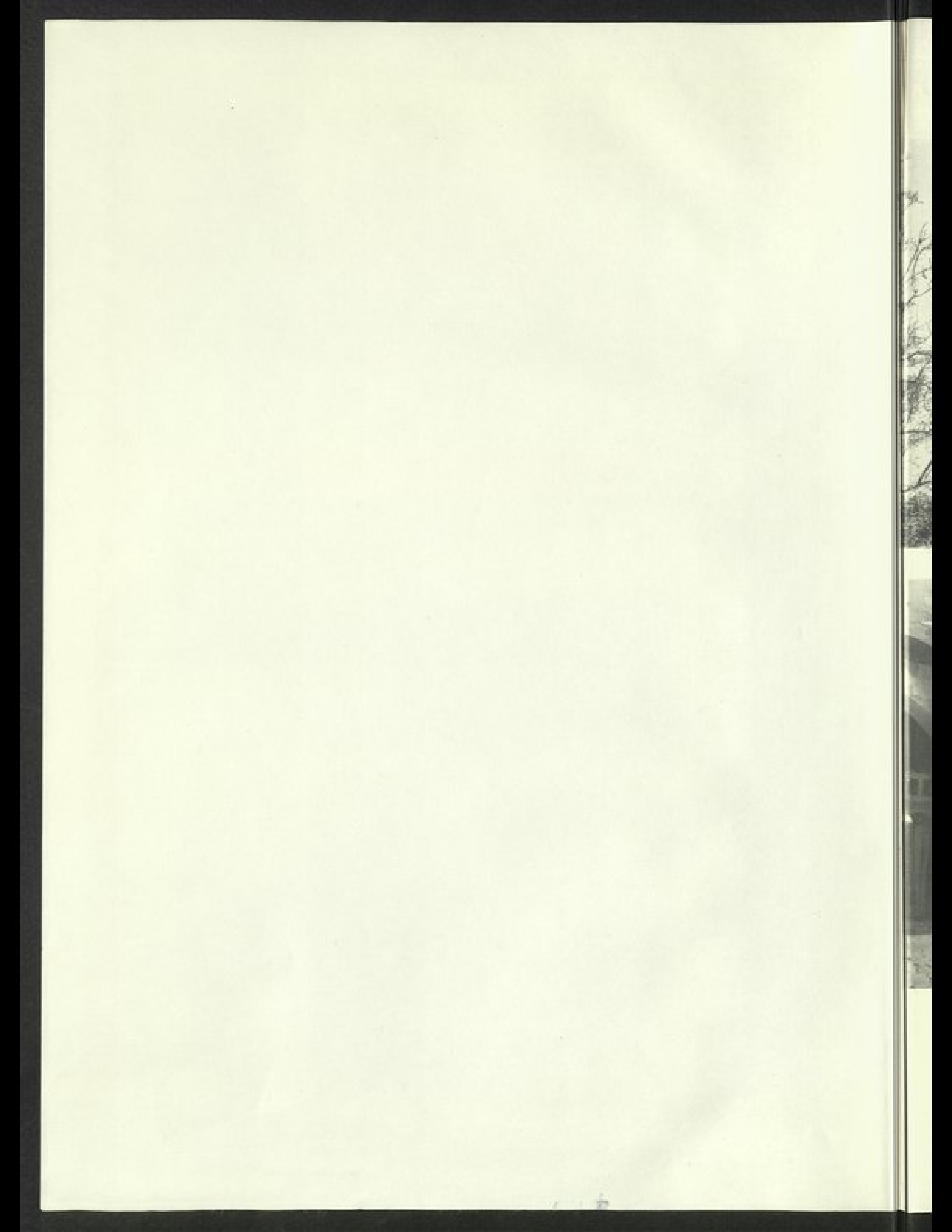
٦٠

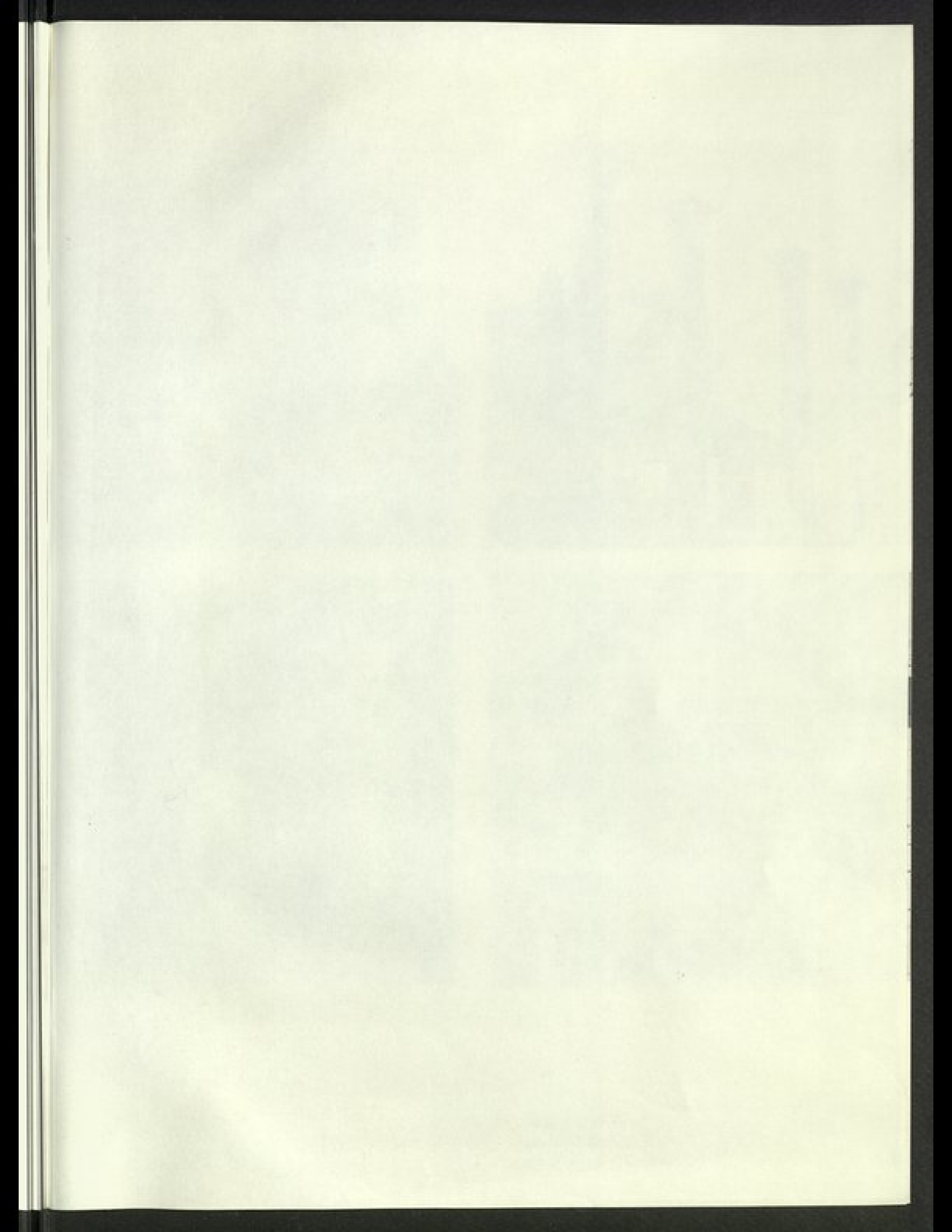


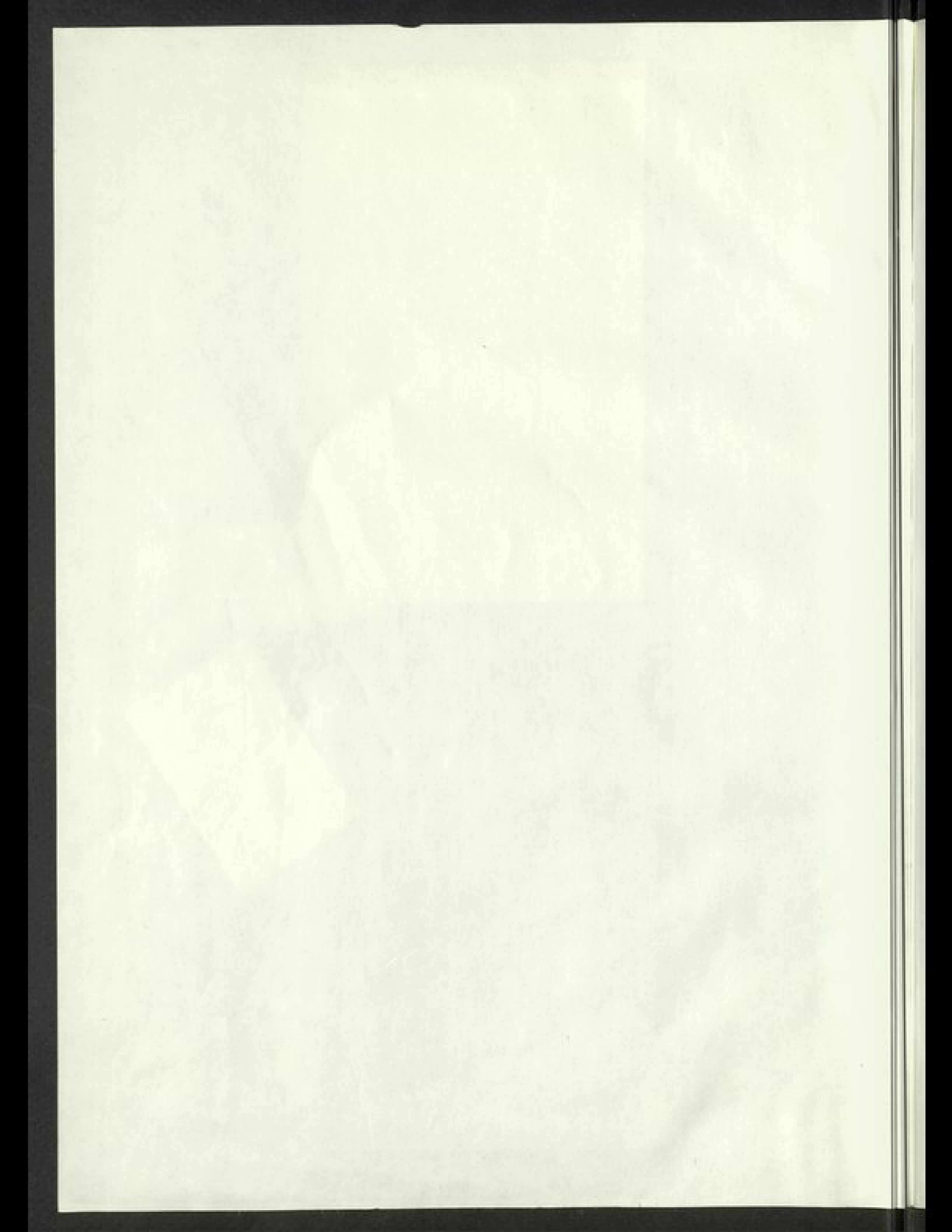
٦١

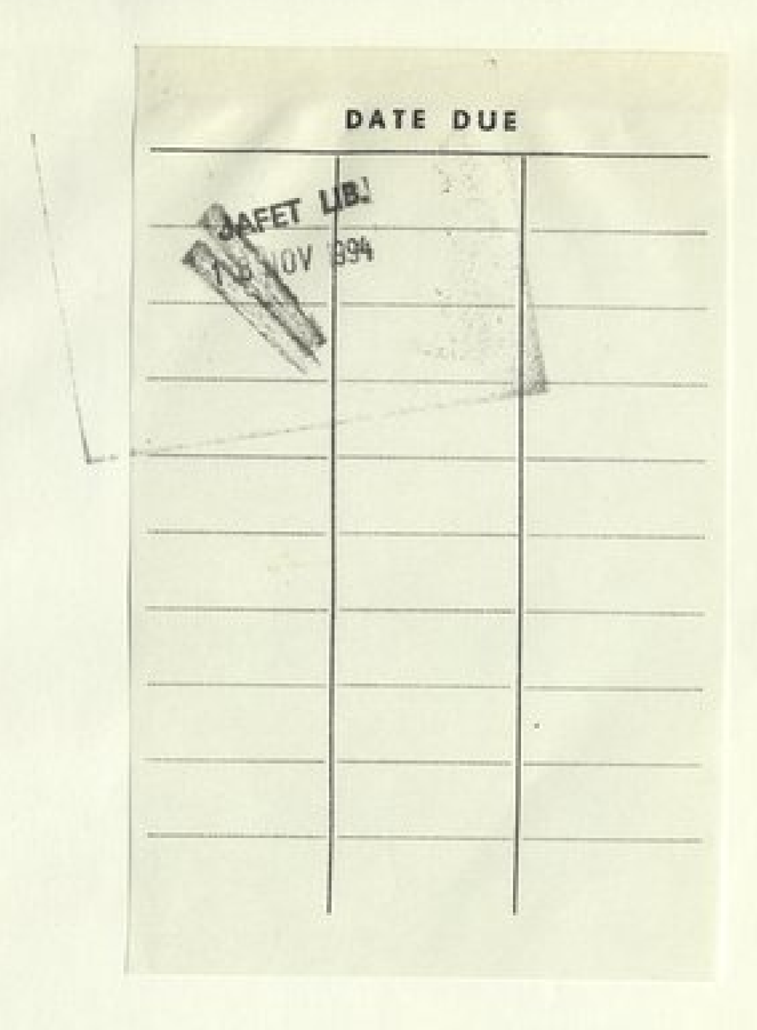


٥٨ – بصرى : أعمدة قديمة من العصر الروماني .
٥٩ – قنوات : معبد الشمس .
٦٠ – شقا : مدخل القصر .
٦١ – ازرع : كنيسة القديس جرجس .








DATE DUE